السبت 31 كانون الأول 2022
العدد 4815 السنة السابعة عشرة
Samedi 31 Décembre 2022 no 4815 17ème année

24 صفحة
10000 ليرة

الأخبار
al-akhbar

www.al-akhbar.com

كلمات

رسالة إلى 2023
لن تموت الأماني رغم ضيق الزمان

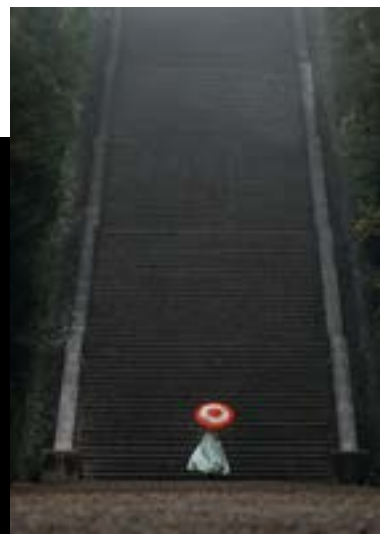

مغارة النافعة: توقيف أطباء وملاحقة مخاتير... وتزوير سجلات عدلية [2]

اجتماع الحكومة: مشروع تفجير جديد [2]

اطلب القوس مع الأخبار

أنا القوي وموتي لا أُكرّره

[8 ـ 13]

تحتجب «الأخبار» يومَي الاثنين والثلاثاء لمناسبة رأس السنة

(تصميم: علي فرات)

المشهد السياسي

السعودية لفرنسا وقطر: لن نتحمل مسؤولية ملف الرئاسة

اجتماع الحكومة: مشروع تفجير جديد

كرّست وقائع الأسبوعين الأخيرين استمرار التوازن السلبي مخيّماً على لبنان مع بداية العام الجديد في انتظار جلاء النوايا الخارجية تجاهه، فإما مزيد من الانهيار والفوضى أو حصول تحوّل كبير يسمح بتحقيق اختراق في الملف الرئاسي. كل المؤشرات تدلّ إلى أن الكباش السياسي الذي تجدّد حيال تفعيل حكومة تصريف الأعمال في ظل الفراغ الرئاسي سيأخذ مداه بعد الأعياد، خصوصاً أن رئيس الحكومة نجيب ميقاتي، ومن

> القرار السياسي بشأن الدعوة إلى جلسة للحكومة اتخذ في انتظار التفاصيل اللوجستية

بدعمه، يسعى إلى استخدام «البنود الملحّة» كعامل ضغط للدعوة إلى جلسة وزارية، ما يضع البلاد أمام أسابيع حافلة بالانقسام السياسي والمالي والدستوري، قد يأخذ منحى تصادمياً غير مسبوق.

حصيلة الساعات الأخيرة أكدت أن القرار السياسي بشأن الدعوة إلى جلسة للحكومة قد اتخذ، بينما تبقى التفاصيل اللوجستية، إذ لا يُمكن عقد الجلسة في الأسبوع الأول من السنة الجديدة بسبب «وجود معظم الوزراء خارج البلاد لقضاء العطلة، وأكثرهم لن يعود قبل نهاية الأسبوع المقبل» وفق مصادر وزارية. أما بالنسبة لجدول الأعمال، فتشير المصادر إلى أنه «لم ينجز بعد، لكن على الأرجح سيكون البند المتعلق بسلفة الخزينة للكهرباء الموضوع الرئيسي، بعد

(هيثم الموسوي)

أن وقّع وزير الدفاع المرسوم المتعلق بالترقيات، وستضاف إلى ذلك بنود أخرى تعني المواطنين ومنها ملف النفايات، إلا أن الأمور غير محسومة بعد».

وفي هذا الإطار، قالت المصادر إن «الجلسة ستنتظر أيضاً نتائج الاتصالات السياسية التي ستستأنف بعد الأعياد، بخاصة في ظل رفض التيار الوطني الحر والقوى المسيحية مبدأ الدعوة، فضلاً عن تحديد وزير الطاقة وليد فياض موقفه من المشاركة، إذ إنه الوزير المعني بملف الكهرباء»، معتبرة أن «ما سيترتب عن انعقاد الجلسة هذه المرة سيكون كبيراً وأكثر خطراً من الجلسة الماضية لأن القوى المسيحية سترى فيها استفزازاً ومحاولة لتخطّي طائفة برمتها». ومن ناحية أخرى، لفتت المصادر إلى أن «دعوة ميقاتي ستضع القوى السياسية المشاركة في الحكومة أمام موقف محرج في ضوء الطبيعة الملحة لبعض البنود»، والأكثر حرجاً هذه المرة «سيكون حزب الله الذي لم يحدد موقفه بعد في ظل الخلاف العميق الذي ضرب علاقته بالتيار الوطني الحر إثر مشاركته في الجلسة الماضية».

وعلى الصعيد الرئاسي، أحصى مصدر مواكب للاتصالات التي أجريت الأسبوعين الماضيين مجموعة من النتائج الأولية يختصرها بالآتي:

أولاً: تؤمن الولايات المتحدة دعماً مباشراً لفرنسا وقطر في معركة توفير الأصوات لقائد الجيش العماد جوزيف عون، مع تمايز فرنسي يقضي بعدم إقفال الباب أمام تسوية قد تقود رئيس تيار «المردة» سليمان فرنجية إلى القصر الجمهوري.

ثانياً: إبلاغ المملكة العربية السعودية الجانبين الفرنسي والقطري أنها قررت الاستمرار في سياستها القائمة منذ عام 2016 بعدم تحمل مسؤولية عن أي قرار أو خطوة لها تبعاتها، خصوصاً أن ولي العهد محمد بن سلمان لا يزال عند رأيه بصعوبة تأمين إجماع لبناني على إدارة ترضي العرب والغرب ولا تكون خاضعة لحزب الله. ولذلك فإن الرياض لا تريد التورط في أي برنامج أو خطة دعم اقتصادي خاص، وهي تلتزم فقط بالسقف المتعلق بالصندوق المشترك مع فرنسا.

ثالثاً: يشكل الانقسام المسيحي عائقاً أساسياً أمام السير بمرشح جدي للرئاسة من قبل الأطراف الإسلامية. وطالما لم يعلن حزب الله وحلفاؤه عن اسم مرشح، فإن الأبواب تبقى مفتوحة مع الآخرين، ولا سيما مع بركي التي تكثفت الاتصالات بينها وبين حارة حريك أخيراً، وقد تترجم هذه الاتصالات بخطوة قريباً، ومع «التيار الوطني الحر»، وإن كان الأخير قد أبلغ جميع من التقى بهم في الأسبوعين الماضيين داخلياً وخارجياً رفضه ترشيح فرنجية أو قائد الجيش.

رابعاً: يبدو أن الجميع في الداخل والخارج يراقب تحركات حزب الله، والأخير ما زال متمسكاً باستراتيجية عدم إعلان موقف حاسم الآن، وعدم وضع فيتو على أي مرشح للرئاسة، وإبقاء قنوات التواصل مفتوحة مع الجميع.

(الأخبار)

ابراهيم الأمين

التجويع والحصار والتضليل... والعصا الغليظة!

لا شيء يبقى على ما هو عليه. الجغرافيا نفسها تتبدل، ومعها أنظمة وسكان وأنماط حياة. لكن النار بقيت العنصر الحاكم في التغيير نحو الأفضل أو الأسوأ. وفي عالمنا اليوم، لا تزال القوة الفعلية بيد أهل الشر من الغرب الأبيض، وكل المتعاونين معهم من حكام أو قوى منتشرة على مساحات العالم. وما الحرب المفتوحة ضد روسيا سوى دليل إضافي على أن شهية الغرب للتوسع والقهر لا تزال مفتوحة. وإذا كان هؤلاء لا يهتمون لخسارة الملايين من مواطني بلادهم المترفة الكثير مقابل صرف الكثير من الأموال والطاقات على إطالة أمد الحرب بقصد تدمير العدو، فكيف لهم أن يسألوا عن مصير بقية الشعوب؟

في بلادنا، ومنذ عام 2003، انطلق مشروع الاستعمار الجديد بقيادة الولايات المتحدة. دُمِّرت دول وأُزيلت أنظمة واستُبدلت بحكم الفوضى غير البنّاءة، وتشقّقت مجتمعات وتوسعت

> لم يترك الغرب وعربه لشعوب المنطقة سوى خيار العصا الغليظة لكسر الحصار

الانقسامات بين فقراء العالم باسم السياسة والدين والعقيدة والحدود. لكن عجز الغرب عن الانتصار التام في الاستيلاء على هذه الدول دفعه، كما في كل مرة، إلى ترك الفراغ والدمار ثمناً تدفعه الشعوب التي قاومت الغزو. فيما تدفع شعوب الدول المستقرة المعادية للغرب الأثمان بحصار يقوى عاماً بعد عام.

في منطقتنا، تتواصل محاولات تثبيت الاحتلالات العسكرية المباشرة. ويستمر تسليح الحكومات والجيوش لقتل شعوبها، أو الاعتداء على جيرانها. ويستمر، أيضاً، الحصار المطبق على كل من يصنف في خانة المتمرد. وفي هذا النوع من السياسة، لا مكان للأخلاق. يكفي سؤال أهم الأكاديميين والعلماء والمفكرين والباحثين وقادة الجامعات والرأي، في كل الغرب المتطور، عن حجم تأثير هؤلاء في تعديل موقف واحد من مواقف حكومات الغرب التي تدمر بلاداً بأكملها، من سوريا والعراق واليمن ولبنان، إضافة إلى استمرار الجريمة المفتوحة ضد فلسطين.

خلال السنوات العشر الماضية، مورست كل أنواع الحروب ضدنا. شُنّت حملات عسكرية، واشتعلت حروب أهلية، وارتفع منسوب الانقسام الطائفي والمذهبي، وفُتحت النار من خلال حملة إعلامية - دعائية غير مسبوقة ضد كل من يصنّف خصماً للآلة الغربية. مع ذلك، صمدت دول وشعوب وقوى. لكن صمودها عرضة لموجة ضغط جديدة عبر حصار غير مسبوق، هدفه ليس تجويع الناس فقط، بل إنهاء أي شكل للدولة المركزية، ودفع بعض الدول المستقرة إلى الانشغال بفوضى داخلية كبيرة، كما هي الحال مع إيران، وكما هي الحال في سوريا التي تعيش أسوأ ظروفها الاقتصادية والمعيشية، فيما العراق مقبل على موجة جديدة من الحصار المالي، وتالياً الاقتصادي، مع تعزيز انقساماته السياسية. ويُترك اليمن لمصيره القاسي ما لم يرضخ للشر الآتي من الشمال والغرب، ويُمنع لبنان من إنتاج كهرباء لبضع ساعات، ومن فتح الأبواب أمام خيارات تمنع سقوطه الشامل. أما فلسطين فتعيش في ظل زنار وشتاء من النار والقتل والقهر والتهجير.

لا يزال الصمود والصبر عنوانين لخيار المرحلة. لكن الدائرة تضيق على الجميع، وصار من الضروري أن يفكر الخصوم قبل الحلفاء، بأنه في حال كان الغرب وأنصاره من العرب يملكون قوة النار والاقتصاد والدعاية، فإن في بلادنا قدرات يمكن إدراجها تحت عنوان «العصا الغليظة» التي تقود المؤشرات إلى أنه لن يطول الوقت قبل استخدامها لإشعار الآخرين بأن الأمان ورغد العيش لن يبقى حكراً على قسم من دون الآخر من شعوب هذه المنطقة!

«العصا الغليظة» هي السلاح الذي يفترض به تشكيل تهديد فعلي لكل مصالح الغرب ولكل عناصر التفوق لدى عملائه في المنطقة. ورغم أن لهذا الخيار عواقبه وأثمانه الكبيرة، لكنه خيار الضرورة بعدما قرر الغرب السير في الصراع، بموافقة ومشاركة عربه وأنصاره في الإقليم، ولم يترك لنا من خيار سوى أن نقابله بالنار التي تحرق كل شيء. وفي هذا الخيار، ليس دعوة للانتحار، بل دعوة لضربة غليظة تكسر الطوق حيث لا يجرؤ الآخرون!

تقرير

مغارة النافعة: توقيف أطباء وملاحقة مخاتير... وتزوير سجلات عدلية

تجاوز عدد الموقوفين المئة في ملف الفساد في النافعة. وطاولت التحقيقات والتوقيفات والملاحقات أطباء ومخاتير وموظفين في السجل العدلي، مع اتجاه للتوسع في التحقيق وتوسيع مروحة المتورطين

رضوان مرتضى

ثلاثة أشهر مرّت على بدء التحقيقات في ملف النافعة وفتح باب مغارتها، ورغم توقيف معظم الموظفين في مركزي الأوزاعي والدكوانة، لم تتكشّف الحقيقة كاملة بعد هذا الملف الشائك والضخم الذي يصل حجم الأموال المنهوبة فيه إلى المليارات. وفي المقابل، لم تُفلح التدخلات (بعد؟) في حرف وجهة الملف أو وقفه، لا سيما بعد قرار الهيئة الاتهامية فسخ قرار قاضي التحقيق الأول في جبل لبنان نقولا منصور بإبطال تحقيقات المحامي العام في جبل لبنان القاضية نازك الخطيب مع رئيسة هيئة إدارة السير هدى سلوم، واعتبارها صحيحة مئة في المئة.

وقد تزامن قرار الهيئة مع توسّع التدقيق ليطاول المعاملات المنجزة سابقاً لبتيرتي، بناء لإفادة الشهود، وجود مئات التقارير الطبية التي كانت تُمهر «على بياض» ويتولّى موظفون بملئها بأسماء أصحاب المعاملات الذي يدفعون ثمن هذه «الخدمة». هنا تكشّفت أمام المحققين مسألة أكثر خطورة تتعلّق بسهولة شراء أي كان، سواء كان طبيباً أو سمساراً أو معقّب معاملات أو صاحب مكتب لتعليم قيادة السيارات، دفاتر التقارير الطبية من نقابة الأطباء وتعبئتها. وهو ما أتاح لكثيرين ممن لا تتوافر لديهم المواصفات الصحية التي تؤهلهم للقيادة ويشكلون خطراً على أنفسهم والآخرين، الحصول على شهادة سوق بناء على هذه التقارير مقابل 250 ألف ليرة (قبل انهيار قيمة العملة).

بناء على هذه المعطيات، وبعد طلب الخطيب من محققي فرع المعلومات في قوى الأمن الداخلي التدقيق في المعاملات القديمة، تم التدقيق في 600 معاملة، وتبين أن هناك 12 طبيباً يُشتبه فيهم بمنح تقارير «على بياض». وبعد مثول تسعة من هؤلاء أمام الخطيب اعترفوا بأن التواقيع عائدة لهم، فأعطت إشارتها بتوقيفهم لتورطهم في إعطاء تقارير طبية كاذبة. وتبيّن أن أحد الأطباء الـ 12 غير مُسجّل في نقابة الأطباء أصلاً، فيما سُطّرت مذكرة جلب بحق طبيبين تمنّعا عن الحضور.

وعلمت «الأخبار» أنّ القاضية الخطيب طلبت التدقيق في كل المعاملات لتحديد جميع الأطباء الضالعين في إعطاء تقارير وهمية، كما كشفت مصادر مطلعة على

(مروان بوحيدر)

التحقيقات أنّ المحققين يُعِدّون لائحة بأسماء المخاتير الذين يُشتبه في منحهم إفادات وهمية للاستحصال على دفاتر سوق، على أن تُرسل لائحة بأسمائهم إلى وزارة الداخلية للحصول على إذن بملاحقتهم، إذ تبين أنّ المستندات الرسمية الممنوحة لأصحاب الطلبات والتي يُفترض بصاحب المعاملة الحضور شخصياً للاستحصال عليها، أُعطيت للمعقّب بدلاً منه من دون توافر الأوراق الثبوتية المطلوبة. وكشفت المصادر أنّ التدقيق في الملفات توصل إلى وجود سجلات عدلية مزوّرة استُخدمت للحصول على دفاتر قيادة، وطلبت الخطيب التدقيق لتحديد المتورطين في الاستحصال على هذه السجلات. فيما أحيل الموقوفون على قاضي التحقيق للتوسع في التحقيق.

محاولات عرقلة الملف لم تتوقف. كما أنّ القرار بالسير بهذا الملف حتى النهاية لا يزال قائماً. غير أنّ مسار التحقيقات ينبئ بأنه لا يزال أمام المحققين أربعة أو خمسة أشهر على أقل تقدير قبل الانتهاء من الملف لختمه وإحالته كاملاً أمام القضاء.

تقرير

ماذا وراء صراع وزير الاقتصاد وشركات التأمين؟

ندى أيوب

ظهر أخيراً إلى العلن الخلاف بين وزير الاقتصاد أمين سلام وشركات التأمين. من حيث المبدأ، إدانة سلام لشركات احتالت على متضرري انفجار الرابع من آب، وقضمت حقوقهم، في محلها. لكن توقيت إثارة القضية بعد عامين من الحادثة أثار الشكوك حول الخلفيات. في البحث تبرز رواية بطلها شقيق الوزير الذي يشغل رسمياً منصب مستشاره المالي، ويشغل بطريقة غير رسمية منصب المدير الفعلي لهيئة الرقابة على الشركات الضامنة الخاضعة قانوناً لوصاية وزير الاقتصاد.

يبلغ مجموع مستحقات شركات الضمان لمتضرري انفجار مرفأ بيروت أكثر من مليار ومئة مليون دولار. وفي حين تقوّل الشركات إنها غطت 80% من متضرري الانفجار، تفيد وزارة الاقتصاد بأن الشركات لم تدفع أكثر من 500 مليون دولار، وحتى هذا المبلغ لم تتضح طريقة تسديده. فيما هناك شكاوى كثيرة من المتضررين بأن بعض الشركات دفعت الأموال بالدولار، وأخرى دفعت بين 10% و20% من مجمل المبلغ بالدولار الفريش، مقابل توقيع أصحاب الحقوق على تنازل عن المبلغ المتبقي وتبرئة ذمة الشركة. وهو ما لا يمكن النظر إليه بشكل منفصل عن الأزمة الاقتصادية الحاصلة، واستغلال الشركات لحاجة الناس للأموال وإجبارهم على التوقيع تحت الضغط، ما دفع بسلام إلى اعتبار الأمر «إثراء غير مشروع» و«سرقة موصوفة»، متوعداً بـ«تحميل كل من يقف في وجه هيئة الرقابة ووزارة الاقتصاد مسؤولية التواطؤ مع كل من تسول له نفسه سرقة أموال الناس»، خصوصاً أن الشركات اللبنانية تستقاضى هذه المبالغ كاملة بالدولار من الشركات الأساسية في الخارج. يتحدث سلام من موقع الواثق، متحصناً بـ 40 قراراً أصدرها في الأشهر الماضية لفرض غرامات على شركات مخالفة لم تقدم ما يلزم من بيانات مالية توثّق المبالغ وطريقة إنفاقها أمام هيئة الرقابة، واعتراف الشركات المعنية بأحقية الغرامات.

هي خطوات كان الأجدى ربما باتخاذها قبل زمن. فأكثر من عامين مرّا على جريمة المرفأ لم يسمع خلالها الرأي العام بفضيحة شركات التأمين. في

> تحوّلت هيئة الرقابة على الشركات الضامنة إلى «صندوق أسود» في الوزارة

الأجواء همس، عن أن كريم سلام، وهو شقيق الوزير الذي يشغل منصب مستشاره المالي نظراً لخبرته في المجال، «يساوم الشركات على تسوية أوضاعها في هيئة الرقابة مقابل مبالغ مالية معيّنة». حاولت «الأخبار» التواصل مع سلام من دون جدوى. لكنه في مؤتمره الصحافي قبل يومين رد بأن شقيقه يشغل منصب مستشاره. إلا أن ما هو غير واضح: كيف لمستشار الوزير أن ينوب مكان رئيس هيئة الرقابة، ولماذا يتواصل مع الشركات حتى وإن كان بتوجيهات من الوزير. ما يتقاطع مع كلام المصادر، عن أن الرئيس الحالي للهيئة هو «رئيس صوري».

وفي التفاصيل، فإن رئيس الهيئة إيلي معلوف استقال قبل 6 أشهر للعمل في القطاع الخاص، فعيّن الوزير سلام بموجب الصلاحيات الممنوحة إليه، رئيساً جديداً من أحد أعضاء الهيئة، فيما تؤكد المصادر أن «كريم سلام هو الرئيس الفعلي، وقد عين في الأشهر الأخيرة موظفين جدداً في الهيئة، مخالفاً بذلك قانون منع التوظيف في القطاع العام».

المشكلة الأساس هي أن هيئة الرقابة على الشركات لا تتبع لوزارة الاقتصاد إنما مباشرة لوصاية الوزير نفسه. هو من يعيّن رئيسها ويحرّك حساباتها. فيما رواتب رئيسها وأعضائها تُدفع من صندوق خاص يموّل من عائدات شركات التأمين نفسها، التي على الهيئة مراقبة عملها. ما يجعلها مرجعاً غير مستقل، بالتالي غير موثوق. هذه التركيبة الهجينة، المخالفة لمبادئ الشفافية، حولت وفق المصادر الهيئة على مدى سنوات إلى ما يشبه «الصندوق الأسود». إذ إن رواتب العاملين فيها تتخطى رواتب موظفي الفئة الأولى، وكانت تصل إلى حدود نحو 30 مليون ليرة قبل الانهيار، أي ما كان يوازي 20 ألف دولار.

قضية

إيواء القاصرين والقاصرات في السجون اللبنانية
«تأهيل» الأحداث ليصبحوا «مجرمين»!

يعاني الأحداث في السجون اللبنانية ظروفاً نفسيّة وجسديّة غير ملائمة: لا مباني مؤهلة ولا قضاة ذوي مؤهلات محددة ولا عسكريين مُدرّبين على التعامل معهم. وهم، في مراكز إيوائهم التي يُفترض أن تعيد تأهيلهم ليكونوا عناصر فاعلة في المجتمع، يتعرّضون للضرب والتعذيب والتحرّش الجنسي والترهيب... حتى أصبحت مباني الأحداث والمراكز التي تستقبلهم «معبرات» لـ«تأهيلهم» لمزيد من الانخراط في عالم الجريمة

لينا فخر الدين

يقع مركز «مبادرة» في محيط مستشفى ضهر الباشق الحكومي، وقد أسسته وزارة العدل بالتعاون مع وزارة الداخلية ومكتب الأمم المتّحدة المعني بمكافحة المخدرات والجريمة (UNODC). وهو يُعنى بتأهيل الفتيات المُخالفات للقانون واللواتي صدرت بحقهن مذكرات توقيف أو اتخذت محكمة الأحداث بحقهن تدابير تأديبيّة أو عقوبات مخفّضة.

«راح نص طفولتي»، هكذا تصف «نور» (اسم مستعار) حالها بعد أكثر من ثلاث سنوات أمضتها في مبنى المركز الذي خصّص الموقع الإلكتروني التابع لوزارة العدل أكثر من 7 صفحات للحديث عنه وعن «الحياة الوردية» التي يوفّرها للفتيات: العيش في ظروف اجتماعيّة ونفسيّة آمنة، ومشاريع تأهيل وتدريب، وبرامج تعليم وإنتاج... يبدو هذا بعيداً كل البعد عن الحياة التي عاشتها «نور» وزميلاتها الموقوفات. يكفي أن تُعدّد المرّات التي حاولت فيها الانتحار لتبيّن المأساة التي كانت تعيشها في المركز الذي دخلته قبل أن تتجاوز الـ12 عاماً، لتجد لها «شباباً جميلاً يهتم بها»، فيما عرضت موقوفة أخرى تعليمها «كار» سرقة السيارات؟. ولم تملك شيئاً أمام استفواء موقوفات أخريات عليها و«تشليحها» الثياب التي اشترتها لها والدتها من جهة، وأمام بسنوات. لم تفهم الفتاة الصغيرة لماذا كانت الفتيات الثلاث «يلتصقن» بعضُهن ببعض ليلاً، ولماذا دعتها إحدى الموقوفات بتهمة الدعارة للاتصال بها حالما تخرج من المركز لتجد لها «شاباً جميلاً يهتم بها»، فيما عرضت موقوفة أخرى تعليمها «كار» سرقة السيارات؟. ولم تملك شيئاً أمام استفواء موقوفات أخريات عليها و«تشليحها» الثياب التي اشترتها لها والدتها من جهة، وأمام عقاب الحارسات اللواتي اتهمنها بممارسة العادة السرية لأنّنا تنام بملابسها الداخلية. معظم وقتها تمضيه جالسة على سريرها من دون أي حركة، و«سلوتها» الوحيدة هي الدقائق الطويلة التي تقضيها في المرحاض عندما يكون خالياً لاسترجاع قدرتها على الكلام وممارسة هوايتها بالغناء. عانت صدمة نفسيّة وقلقاً مرضياً جعلاها غير قادرة على النوم، وقضت أياماً طويلة تحت الحرام الصوفي تبكي بحرقة، حتى أُحيلت إلى الطبيب النفسي الذي نصح بإعطائها دواء مضاداً للقلق لتتمكن من النوم. لم تفهم «نور» من الطبيب سوى كلمة واحدة: «دوا أعصاب» فرفضت تناوله. بعد سفر الطبيب وامتناع إدارة المركز عن متابعة حالتها النفسيّة مع طبيب آخر، لم يجد المسؤولون حلاً لـ«عصْبان» الأوامر سوى إحالتها إلى الغرفة الانفرادية التأديبية في سجن رومية. هناك، تم تقييدها بـ«الكلبشة» ورمى عليها العسكري مياهاً باردة وبدأ بضربها. في كل مرة يُطلب من «نور» الانتقال إلى الغرفة الانفراديّة التي تقع في الطابق نفسه، كانت تعرف أن عسكريي رومية سيقومون بضربها. ومع ذلك، فإنّ الرعب الأكبر بالنسبة إليها هو بقاؤها في غرفة مظلمة لمدة 3 أيام، هي التي تخاف من العتمة. الرعب منعها من الشكوى إلى والدتها التي كانت تزورها أسبوعياً، وفي كل مرة تُلاحظ أن ابنتها «تحوّلت إلى جسدٍ بلا روح، بالكاد تتكلّم ومن دون أن تتمكّن من التعبير عمّا يجول في خاطرها».

(هيثم الموسوي)

> **الكتب والدفاتر ممنوعة في مركز يقول عنه موقع وزارة العدل إنّ البرامج التربوية أولوية فيه للقاصرات**

رواية «نور» تتقاطع مع رواية زميلتها «سمر» (اسم مستعار) التي تؤكّد تعرّضها للتحرّش والضرب من قبل العسكريين. واقع كان أكبر من قدرة «نور» على تحمّله، ما دفعها إلى أكثر من محاولة انتحار بالتشطيب أو محاولة خنق نفسها بالثياب والحرام الصوفي، فكان عقابها الاحتجاز في الغرفة الانفرادية، في مركز يُفترض أن يوفّر للقاصرات رعاية نفسيّة وبيئة آمنة.

التأهيل مفقود

الوقت يمرّ بطيئاً جداً على القاصرات في مركز «مبادرة»: الكتب والدفاتر ممنوعة في مركز يقول عنه موقع وزارة العدل إنّ «البرامج التربويّة أولوية (فيه) للقاصرات اللواتي لم تتسنّ لهن فرصة الحصول على ثقافة مدرسيّة مناسبة لعمرهنّ»، وإن «هذا البرنامج من مسؤولية مدير النشاطات الاجتماعية، وهو يتمحور على مستويين أو أكثر: تعليم الأميّات، رفع المستوى المدرسي، المعلوماتيّة». لا تفقه «نور» أياً من العبارات التي يوردها الموقع، لكنّها تؤكد أن أياً من هذا غير موجود أصلاً في المركز، إذ إن برامج التأهيل محصورة، بحسب السجينات القاصرات، بجمعيّة تُجري دورات تدريبيّة على تعليم الخياطة والكروشيه يومي الإثنين والأربعاء، إضافة إلى جمعيّة الإرشاد والإصلاح التي كانت تعلّم السجينات الرسم يوم الخميس. بالنسبة إلى «نور»، التأهيل الوحيد الذي لحقها هو اكتسابها مهارة تنظيف المراحيض والغرفة الخاصة بها وبزميلاتها، ومشاهدة «مدام روزي» تطبخ لهن الملوخيّة كل يوم جمعة.

مبنى الأحداث

ما تعيشه القاصرات في مركز «مبادرة» يعانيه القُصّر الذكور الموجودون في أحد الأجنحة في مبنى الأحداث في سجن رومية. يتعدّى عدد هؤلاء الـ130، بينهم عدد كبير من السوريين، ويتوزّعون على أكثر من نظارة يضم كل منها نحو 20 سجيناً ينامون في غرف تتضمّن أسرّة ومرحاضاً مشتركاً يتناوبون على تنظيفه.

يتعرّض هؤلاء، بحسب ما يؤكد بعضهم لـ«الأخبار»، للضرب والتعذيب. يتحدّث «سمير» (اسم مستعار) عن عسكريين «بلا رحمة ينتظرون أي خطأ لضربنا». ويوضح ابن الـ15 عاماً أنّ الخطأ «يعني وقوع أي شجار أو صراخ بين السجناء. سريعاً، يخرجنا الحراس من الغرف، ويطلبون منّا خلع ملابسنا ويرمون علينا مياهاً باردة، قبل أن ينهالوا علينا بالضرب بقساطل بلاستيكيّة».

«تَمسّحت وما بقي تفرق معي»، يقول «رامي» (18 عاماً)، بعد أن قضى أكثر من عامين في جناح الأحداث، لافتاً إلى أن «صلاحية الضرب» لا تقتصر على العسكريين، بل تشمل أيضاً الشاويش، ويرافقها توجيه شتائم وإهانات ووصف السجناء الأحداث بـ«المخنثين».

وإذ ينفي من تحدّثت إليهم «الأخبار» أن يكونوا قد تعرّضوا لأي تحرّش جنسي من قبل عسكريين أو سجناء آخرين خصوصاً أنّهم مسجونون في مبنى منفصل عن غير الأحداث، يشيرون إلى أنّ التحرّش أو العلاقات الجنسيّة تحصل بالتراضي بين بعض الأحداث أنفسهم داخل الغرف. وعمّا إذا كانوا يتعلّقون هذه الوقائع إلى مندوبي جمعيات يزورونهم باستمرار لتقديم المساعدات كالألبسة وأدوات التنظيف والتعقيم، يقول أحدهم: «حكي على الفاضي. سبق أن اشتكينا ولكنّهم لم يفعلوا شيئاً».

أما في ما يتعلق بالمهارات التي اكتسبوها عبر البرامج التأهيليّة التي يُفترض أنهم يتلقّونها، فيؤكد أكثر من خَدَث أن «ما نتعلمه من بعضنا هو فنون السرقة والنشل وأساليب تجارة المخدّرات»!

تدمع عينا «سمير» لدى سؤاله عما سيفعله بعد خروجه من رومية: «أهلي لا يهتمّون لأمري، لم أتلقَّ تعليماً ولم أكتسب مهنة. على الأرجح سأعود إلى الشارع ثم إلى السجن من جديد. هنا حياتي ومستقبلي». يتمنّى ابن الـ15 عاماً لو أنه اكتسب «مصلحة» ما في السجن «كي أجد عملاً عندما أخرج». ولأن ذلك لا يحدث، يعتبر كثيرون أنّ البقاء في السجن أفضل لهم.

والأفدح، أنّ معظم المسؤولين عن السجون يقرّون بأنّ جناح الأحداث يُعد الممر الأول للمخدّرات إلى السجن، إذ إنّ للقاصرين الحق في مقابلة أهلهم والمرشدات الاجتماعيات ومندوبات الأحداث وجهاً لوجه، وليس من خلف عازل. ويؤكد هؤلاء أن الكثير من المرشدات متورّطات في إدخال الحبوب المخدّرة... ما يحوّل جناح الأحداث إلى ممر، ليس للمخدرات فقط، بل إلى المباني الأخرى داخل السجن، إذ إن معظم نزلاء المباني الأخرى مرّوا بهذا الجناح حيث تعرّفوا إلى أسرار بعض «الكارات» ورؤوسها، قبل أن ينتهي الأمر بهم في مباني السجن الأخرى.

132 قاصراً

في آخر إحصاء، صدر هذا الشهر، أشارت وزارة العدل إلى وجود 141 حدثاً (ذكور وإناث) في السجون اللبنانيّة، أكثر من نصفهم سوريون. وهم يتوزّعون بين 132 قاصراً (120 موقوفاً و10 محكومين ومحكومان في قضايا ينتظران أحكامهما في قضايا أخرى) في جناح الأحداث في سجن رومية، و9 قاصرات (7 موقوفات ومحكومتان) في مركز «مبادرة».

كيف يتعامل القضاء مع القاصرين؟

يتعامل القضاء اللبناني مع الأحداث وفقاً للقانون 422 الصادر عام 2002، والذي يستند إلى اتفاقيّة حقوق الطفل الصادرة (1989) التي دعت الدول إلى «تطوير قوانينها لتلبية حقوق الأحداث واحتياجاتهم ومنع تعرّضهم للخطر وتطوير قضاء الأحداث».

ورغم أنّ القانون لا يُعد الأحداث الذين يرتكبون الجرائم «مجرمين»، بل «مخالفين للقانون» وتصل العقوبة المشدّدة بحقهم إلى 15 سنة من دون تطبيق عقوبتي الإعدام أو المؤبد، إلا أن هناك ملاحظات كثيرة قدّمها قانونيون وقضاة عملوا في محاكم الأحداث لم تؤخذ في الاعتبار لتعديل القانون الذي سُنّ منذ أكثر من 20 عاماً.

المفارقة الأولى هي أنّ القضاء يُعد القاصرين بين 7 و18 عاماً مسؤولين جزائياً عن أعمالهم، وإن كان لا يتم تنفيذ عقوبة الحبس إلا في حال أتمّ القاصر عامه الـ12، ليكون لبنان من أكثر الدول تشدداً في هذا الموضوع مقارنةً مع دول المنطقة. فيما تتم إحالة القاصرين دون الـ12 الذين يُضبطون متسوّلين أو متشرّدين إلى مؤسسات رعائيّة.

كما أنّ الوعود منذ أكثر من 5 سنوات بإمكانيّة فصل القاصرين والقاصرات في مبنىً يلائم حاجاتهم النفسية والجسديّة لا تزال حبراً على ورق، بعد إرجاء افتتاح المبنى المخصّص لهم في الوروار لـ«أسباب لوجستيّة». وهذا ينطبق أيضاً على غياب مراكز التوقيف الاحتياطي المُخصّصة للقاصرين والقاصرات الذين يتم احتجازهم داخل النظارات وإن كانت قوى الأمن تؤكد فصلهم داخل غرفٍ.

يُضاف إلى ذلك، عدم وجود نيابة عامّة متخصّصة بالأحداث وعدم إخضاع مساعدي الضابطة العدلية لتدريب في التعامل مع القاصرين، باستثناء، وجود قضاة منفردين (واحد في كل محافظة باستثناء بيروت حيث تم تعيين اثنين) للنظر في جنح القاصرين والغرفة الابتدائية الدنيّة الناظرة في قضايا جنايات الأحداث. علماً أنّه حتى هؤلاء القضاة غير مدرّبين على التعامل مع الأحداث ولا يتم اختيارهم بحسب معايير محدّدة، بل إن بعضهم يُعيّن بسبب رفض معظم القضاة تسلّم هذه المسؤولية، خصوصاً أن معهد الدروس القضائية لا يُسلّط الضوء على الأحداث بل يكتفي بمحاضرات قليلة لا تتعدى الـ3 عن هذه القضايا.

6 تدابير وعقوبة

حدّد القانون 422 إمكانية اجتهاد القاضي بالحكم على الأحداث عقوبة واحدة للقاصرين المخالفين وهي الحبس، إضافة إلى 6 تدابير مانعة للحريّة: اللوم، الوضع قيد الاختبار (تتبع في قضايا المخدّرات التي يقوم فيها المعنيون بإجراء فحوصات للتأكد من عدم التعاطي خلال فترة يحددها القضاء قد تصل إلى سنة)، الحرية المراقبة (مراقبة دائمة على الحدث في بيئته من قبل مندوبي الأحداث للتأكد من سلوكه الاجتماعي وقد تصل إلى 5 سنوات)، العمل للمنفعة العامة أو العمل لمُخالف بالتطوّع في الخدمة العامّة كدار عجزة على سبيل المثال)، الإصلاح والتأديب (لا تُطبّق أصلاً لعدم وجود مراكز متخصّصة). ويتابع قضاة الأحداث التقارير الصادرة من الجمعيات المتخصّصة حول أوضاع الأحداث ليقوموا إما بتخفيض التدابير أو التشدّد بها. وإلى هذه التدابير، يتم اتخاذ تدبير سادس وهو تأمين الحماية للقاصر عبر إبعاده عن بيئته باعتبارها بيئة غير صالحة (كوجود خطر على سلامته الشخصية أو صحته النفسية، أو نموّه الجسدي والعقلي...)، والبحث عن بيئة أخرى انطلاقاً من العائلة، كإمكانية ترك الحضانة مع الأب مثلاً كما قررت المحكمة الشرعية وانتقاله للعيش مع والدته، أو انتقاله للعيش مع أحد أفراد أسرته (جدّه، جدّته، عمّه، عمّته...).

وفي حال عدم وجود بيئة صالحة داخل الأسرة يتم نقل القاصر إلى مؤسسات رعائية وحتى إلى أسر بديلة تقوم بتقديم طلبات في قصور العدل يتم درسها من قبل القضاة وإجراء المقابلات مع العائلات، وفتح تحقيق في المُخالف بالتطوّع في الخدمة العامّة لقوى الأمن الداخلي والمديرية العامة للأمن العام للتأكد من وضع الأسرة، بالإضافة إلى زيارات منتظمة يقوم بها مندوبو الأحداث لمتابعة أحوال القاصرين (غالبيّتهم من الأطفال الحديثي الولادة من دون إمكانية الوصول إلى عائلاتهم البيولوجية). وفي حال ثبوت عدم تلقّي القاصر الرعاية اللازمة يقرر القضاء سحب القاصر من الأسرة البديلة لتأمين مكان آخر.

تقرير

رؤساء وأعضاء مجالس بلدية يريدون تركَ مناصبهم
مطالبة بالانتخابات للتخلّص من أعبائها

رحيل دندش

هل تُجرى الانتخابات البلدية والاختيارية في موعدها، أم يجري التمديد مجدّداً للمجالس البلدية؟ السؤال يطرحه هذه المرة، رؤساء البلديات قبل المواطنين، في ظلّ ظروف عمل صعبة، لم تعد الأكثرية قادرة على الاستمرار فيها. وسواء أجريت الانتخابات، أو لم تُجر، يؤكد المعنيون أن شيئاً لن يتغيّر في هذا الواقع السيّئ، باستثناء إزاحة «هذا العبء» عن كاهل عدد من رؤساء البلديات، وإراحتهم من المسؤولية الكبيرة الملقاة عليهم، ونقلها إلى من قد يجرؤ على تولّي مهمة صعبة وفي وقت حرج، من دون أن يملك شيئاً من إمكانات النجاح.

المجالس البلدية التي انتُخبت في عام 2016، مُدّدت ولايتها عاماً كاملاً حتى شهر أيار المقبل بموجب قانون حمل رقم 2022/285. ويُبرّر الأمر في حينه بتزامن موعد الانتخابات مع موعد الانتخابات النيابية، وعدم الجهوزية المادية والبشرية لإنجاز الاستحقاقين. ومع بدء الأزمة الاقتصادية، في النصف الثاني من عمر ولاية البلديات، عانت الأخيرة للقيام بمهام تجاوزت مسؤولياتها في أحيان كثيرة، بعدما تحوّلت هي إلى السلطة الأولى محل الدولة، بدءاً من دورها في التصدّي لانتشار كوفيد ـ 19، وصولاً إلى تبعات الانهيار الاقتصادي على كل مرافق الحياة تربوياً واجتماعياً واقتصادياً. في المقابل، بقيت مستحقّاتها تتأخر، فحُوّل نصف عوائد سنة 2020 قبل أيام فقط وفق سعر الصرف القديم. أما الرسوم البلدية فهي بالكاد تُستوفى من المؤجّل، وأيضاً وفق سعر الصرف الرسمي قبل الانهيار، ويشكو رؤساء البلديات من عدم إجراء تعديلات على معادلات الرسوم التي تستوفيها البلديات وعدم الإتيان على ذكرها في موازنة 2022 . ما يعني بكلام أوضح أن البلديات مفلسة، رغم أنّ لها في ذمة الدولة مستحقات عامين. بعض البلديات لم تستطع الصمود، وقد بلغ عدد المجالس البلدية المنحلّة 85 مجلساً بلدياً يدير أعمالها القائمقام أو المحافظ.

الانتخابات في موعدها؟

كان من المتوقّع أن يبتّ الاجتماع الأخير للجنة «الدفاع الوطني والداخلية والبلديات» النيابية، في قرار إجراء الانتخابات البلدية والتحضيرات المطلوبة لإجرائها، إلا أنّ هذا الاجتماع لم يُعقد بسبب غياب وزير الداخلية بداعي السفر، ما أجّل الموضوع إلى السنة الجديدة بحسب ما يقول رئيس اللجنة النائب جهاد الصمد في اتصال مع «الأخبار».

ويؤكد رئيس بلدية الغبيري معن الخليل، وهو ممثل البلديات في لجنة تحضير الانتخابات، أن جميع رؤساء البلديات يطالبون بحتمية إجراء الانتخابات «اليوم قبل الغد ولا سيما أن كثيراً من البلديات منحلّة وفقدت نصابها، منهم (أي الأعضاء) مَن استقال ومنهم مَن ترك البلد. فيما استجدّت 27 بلدية تنتظر الانتخابات للمرة الأولى، حتى بلغ عدد البلديات حتى أيلول 2022، 1055 بلدية أغلبها يعاني الشلل والتعطيل».

من جهته، ينقل رئيس بلدية صيدا محمد السعودي عن مصادر خاصة في وزارة الداخلية، التوجه الجدي لإجراء الانتخابات في موعدها المؤجّل، مؤكداً أنّه لن يترشّح لولاية جديدة «وإذا مُدّد العمل سنة إضافية لأي سبب فساستقيل، فالذي يتحدث معك عمره 84 سنة». واصفاً الوضع في بلدية صيدا اليوم بأنّه «يتيح الاستمرار في دفع رواتب الموظفين والقيام بالإصلاحات الضرورية فقط إلى حين إجراء الاستحقاق الانتخابي».

> **بلغ عدد المجالس البلدية المنحلّة 85 مجلساً بلدياً يدير أعمالها القائمقام أو المحافظ**

من سيجرؤ على الترشح؟

رئيس بلدية يعلبك فؤاد بلوق أشد تشاؤماً، بالنظر إلى الأحوال التي تزداد سوءاً وقتامة من جنون الدولار بدون وجود سلطة تسأل «بل يدفعون لنا بالقطارة». يشير بلوق إلى أن كلّ العمل البلدي قائم على الدولار «المحروقات والإصلاحات والآليات، كلّ ذلك يتطلّب الفريش دولار فيما حوّلت الوزارة نصف مستحقات عام 2020 وهي لا تكفي رواتب ومحروقات لشهر واحد».

أما في ما يتعلق بإجراء الانتخابات، وما ستغيّره في أداء العمل البلدي، فيشير بلوق إلى أن لا شيء سيتغيّر وعلى العكس «لا أتوقع أن يتجرّأ أحد للترشح والتصدي لمسؤولية انهيار دولة. هذا سيجلب له الإهانات والمسبّات من الناس الذين ينظرون إليه على أنه الدولة وبيده العصا السحرية». لافتاً إلى أنّه اجتمع بمختلف الشرائح الاجتماعية في يعلبك من تجار وأساتذة وأصحاب مؤسسات طلباً للمساعدة «لكي نستطيع أن نؤمّن المازوت ونجمع النفايات فقط»، ونتيجة سوء الأحوال «اضطررت إلى مخالفة القانون ورفع القيمة التأجيرية على المحالّ لتتماشى مع الوضع رغم أن ذلك يحتاج إلى مراسيم، فماذا يمكن أن أفعل والدولة تخلّت عن البلديات التي تقوم بدور كلّ الوزارات وتركتها بدون مستحقات تواجه الناس».

في السياق نفسه يؤكد رئيس بلدية الشويفات جهاد حيدر أن المليارين اللذين تقاضتهما البلدية بالليرة، والمداخيل التي تصلها على حساب 1500 ليرة، لا تكفي لأيام لبلدية فيها 700 ألف مواطن فيما مصاريف العمل البلدي كلها بالدولار (تصليح آلية، مازوت، صيانة...). ويضيف: «الحكومة تقول لنا بطريقة أخرى، عمرها العالم ما تعيش». بالنسبة إلى حيدر، إجراء الانتخابات المقبلة لا يعني سوى شيء واحد «أنني أخيراً رح قلّ ع بيتي لأن الشغل صار قرفاً»، وبالنسبة إليه، أيّاً من كان سيترشح للتصدي للعمل البلدي هو شخص لا يعرف ماذا يجري في الداخل.

من جهته، يقول رئيس بلدية زحلة أسعد زغيب إن موازنة بلدية زحلة كانت هذا العام 87 مليار ليرة، ذهبت فقط لتسديد رواتب موظفين وكنس ورفع نفايات المدينة. مشيراً إلى أنه من الممكن الاستمرار في ذلك حتى إجراء الانتخابات في أيار المقبل. «أريد أن تجري الانتخابات لأرتاح من هذه المسؤولية ونشوف مين بده يشيل الزير من البير. نحنا طلّعنا نصفه، لكنه لا يزال في البئر».

(هيثم الموسوي)

سيرة اليمين الإسرائيليّ بشخص بنيامين نتنياهو [4]

أسعد أبو خليك *

تتناول هذه السلسلة الكتاب الجديد لبنيامين نتنياهو بعنوان «بيبي: قصتي»، وهو يتضمّن سيرته السياسيّة وسرديّة اليمين الصهيوني المعاصر. أشرتُ في العدد الماضي إلى أنني لن أشير في الاستشهادات إلى عدد الصفحات لأنني قرأتُ الكتاب في نسخة إلكترونيّة وعدد الصفحات ليس نفسه باختلاف البرامج والإعدادات الشخصيّة للقارئ.

ويتناقض كلام نتنياهو في الكتاب وفي الإعلام، لكن هذا ليس بمستغرب عن سياسي اشتُهر حول العالم بأكاذيبه. فهناك المقطع الشهير الذي سُرّب، في قمّة «العشرين» عام 2011، وفيه يقول ساركوزي هامساً لأوباما عن نتنياهو، من دون أن يعلم أن الميكروفون التقط كلامه: «لا أطيقه. إنه كذّاب». ويجيبه أوباما: «وأنا عليّ أن أتعامل معه أكثر منك».

يزهو حكّام إسرائيل بديبلوماطيّة لا تصل إلّا إلى اليهود حصراً، بل حتى إلى اليهود الأوروبيّين قبل غيرهم، وهي ديبلوماطيّة كانت، تاريخيّاً، تستثني حتى المتديّنين من اليهود. وكان نتنياهو يزعم، في الكتاب وأمام وسائل الإعلام عبر السنوات، بأن الانفتاح الديبلوماطي في العالم العربي سيعود بالخير على إسرائيل وعلى علاقاتها بالعالم العربي، وبأن التعبير الشعبي الحرّ سيقضي على حالة العداء ضدّ إسرائيل. ويظنّ حكّام إسرائيل - أو يريد حكّام إسرائيل أن يظنّوا - أن حالة العداء هذه هي حالة مصطنعة هندستْها وأدارتْها أنظمة عربيّة مستبدّة. ولا يفهم نتنياهو، كما لم يُرد أن يَفهم أيّ من زعماء إسرائيل، أن حالة العداء ضدّ إسرائيل، حالةٌ شعبيّة عفويّة، وأن الأنظمة لم تخلقْها، بل على العكس، هي حاولت أن تستوعبها وأن تخفّف من غلوائها. وفي كل الدول التي تفتّحت فيها حريّات التعبير، زاد منسوب العداء ضدّ إسرائيل. ففي تونس مثلاً، وبعد سقوط نظام ابن علي، خاض قيس سعيد حملته الانتخابيّة الناجحة عبر ذمّ التطبيع مع إسرائيل بلغة عربيّة فصحى صارمة. لكن من الواضح في سردية نتنياهو أن انفتاح السياسة في أيّ دولة عربية سيتسبّب بكوارث لإسرائيل ومصالحها. يقول نتنياهو إن «الربيع العربي صدمنا». يعترف أن انطلاق التظاهرات في القاهرة، في عام 2011، دفعه إلى تخفيض عدد العاملين في سفارة إسرائيل هناك. لم يترك في مبنى السفارة إلّا طاقماً صغيراً. وهذا الطاقم أبقاه «من النوم في 9 أيلول 2011: لقد تجمّع الآلاف من المتظاهرين المصريّين الغاضبين أمام سفارة إسرائيل في القاهرة، حيث كان طاقم السفارة المحدود يتجمّع في الطابق العاشر. وكان المتظاهرون «مسلّحين» (حسب وصف نتنياهو) بالسكاكين والهراوات والقضبان الحديدية (لم يذكر نتنياهو إذا ما كان المتظاهرون المصريّون يحملون قنابل نوويّة لتهديد أمن الدولة العبريّة). شعر نتنياهو بخطر أكيد على حياة العاملين الموساديّين في السفارة. اتّصل رئيس الحكومة الإسرائيلية بالطاقم المُحاصَر في السفارة، وقال له أحدهم: «الدينا (بنادق) عوزي. سنقاتل حتى النهاية». هذه صورة عن تسليح الديبلوماسيين في السفارات الإسرائيلية في العالم العربي. كيف وصلت «العوزي» إلى هؤلاء الديبلوماسيين؟ طبعاً، نظام السيسي الخاضع لإسرائيل والإمارات معاً من أيّ نوع.

وكيف يردّ نتنياهو على هذا التهديد الشعبي الحرّ ضدّ وجود سفارة العدوّ التاريخي للعرب؟ طبعاً، عليه أن يشكو أمره للعدّة أميركا كي تأتي لنجدته، مثل كل مواجهة أو تهديد يشعر به حكّام إسرائيل (تماماً كما أن حزب الكتائب استنجد، على مرّ تاريخ الحرب الأهليّة، بالنظام السوري تارة، وبدولة العدوّ تارة أخرى لإنقاذه من هزائم مذلّة). وهذه الحقيقة مُطمئنة: لا يقف بين الغضب الشعبي العربي الفاعل وبين إسرائيل غير أميركا وانظمتها العربية المُطيعة. في ظلّ حُكم عربي ديموقراطي حرّ، لا يمكن لأيّ سفارة إسرائيليّة أن تبقى على أرض عربية. خذوا مثال لبنان: أثق أن إسرائيل لن تفتح سفارة في بيروت ولو عُرض عليها ذلك من قِبَل حكومة لبنان، لعلمها أن فصائل وأحزاباً وتنظيمات ومجموعات سريّة وعلنيّة ستتنافس في ما بينها كي تزيل السفارة من الوجود بالكامل. الشعب العربي رافض باكثريته الساحقة لأيّ وجود للكيان الإسرائيلي، وكل استطلاعات الرأي تؤكّد ذلك، بما فيها تلك المفرطة في التفاؤل التي تُعدّها «مؤسّسة واشنطن».

شعر نتنياهو بخطر ماحق، واتصل على الفور باوباما ليطلب مساعدته في الضغط على قيادة الجيش المصري. وكانت الحكومة الإسرائيلية تضغط بدورها على القيادة العسكرية المصرية من أجل منْع المحتجّين من دخول مبنى السفارة. كذب نتنياهو على القيادة العسكرية المصرية، وأرسل لها أن هيلوكوبترات إسرائيلية في طريقها إلى القاهرة (وبغباء شديد، صدّقت القيادة التهديد). وتحرّكت على وجه السرعة (لا يَذكر نتنياهو ما ورد في حينه في «نيويورك تايمز»، من أن وزيري الخارجية والدفاع الأميركيّيْن اتّصلا بالمشير طنطاوي، وهدّداه بوقْف المعونات العسكريّة والاقتصاديّة إذا لحق أيّ أذى بعملاء «الموساد» في السفارة). وكان المحتجّون على وشك الدخول إلى المعقل السرّي قبل أن تصدّهم القوات المصرية، وترُدّهم على أعقابهم وتلقي القبض على قادتهم.

وفي الإشارة إلى حملة إعادة الانتخاب لأوباما في عام 2011، يذكر نتنياهو غمْزاً كيف أن الرئيس الأسبق خفّف من وطأة «الضغط» على إسرائيل (والضغط الأميركي على إسرائيل هو مجرّد تخفيف العناق والقبلات ليس أكثر، لكن بمقياس العلاقات الأميركية-الإسرائيلية الحميمة، فإن ذلك يُعتبر ضغطاً). في موسم الانتخابات، تنصّل أوباما من كلامه السابق عن تسوية القضيّة الفلسطينية، ونفى أيّ دور مؤثّر لحكومة بلاده، وذكّر بأن المفاوضات يجب أن تُلقى على عاتق الأطراف أنفسهم، وهو موقف إسرائيل لأنها بحكم قوّة الجيش والقنابل النووية تستطيع أن تُفرض تجميد أيّ تسوية أو عرقلتها. وهذا هو موقف إسرائيل منذ عام 1970 في زمن «مبادرة روجرز». ولا يزال العرب يذكّرون بـ«مسيرة السلام» التي لم تَعُد الحكومة الأميركية تذكرها، لكن مشروع الاستسلام السعودي (يحمل، يا للعار، بصمة «قمّة بيروت») يصرّ على «مسيرة سلام» ترعاها أميركا وتظلّلها قنابل إسرائيل النوويّة. فجأة، اكتشف أوباما، في سنة الانتخابات، أن على الدولة الفلسطينيّة أن تضمن أمن الدولة المسلّحة بأسلحة الدمار الشامل، والتي تتعهّد أميركا: إدارةً بعد إدارة - بضمان تفوّقها العسكري ضدّ أيّ مجموعة من الجيوش العربية. فجأة أيضاً، تذكّر أوباما أن دولة إسرائيل ضعيفة وتعيش في ظلّ أدغال من العرب المتوحّشين. قال يومها: «تنظر إسرائيل، وهي دولة صغيرة... وترى عالماً يوجد فيه زعماء لدول كبيرة يهدّدون بمحوها من الخارطة». الغريب في خطاب زعماء أميركا أن إسرائيل تعتدي وتحتلّ وتقتل، لكن أيّ تهديدات ضدّها - حقيقية كانت أو مزوّرة من جانب جهاز اللوبي الإسرائيلي الإعلامي - هي وحدها التي تشكّل الخطر على السلام والأمن الإقليميّ والعالميّيْن. والمزعج أن نتنياهو يُظهر جهله في كل مرّة يستعرض فيها أمام القارئ الغربي معرفته بالثقافة والتاريخ العربيّيْن، فتراه ينسب المثل الصيني «يدٌ واحدة لا تصفّق» إلى الثقافة العربية.

وعن الحروب المتالية ضدّ الشعب الفلسطيني، يزهو نتنياهو بنجاحات «القبّة الحديدية»، ويقول إنها نجحت بنسبة 90%. وهذه الأرقام هي من صُنع جهاز البروباغاندا الإسرائيلي. طبعاً، في الإعلام الغربي ليس هناك من تشكيك في المزاعم العسكرية الإسرائيلية، تماماً كما يغيب التشكيك في المزاعم الخيالية للجيش الأوكراني عن انتصاراته (لو جمعنا عدد الطائرات التي أسقطها الجيش الأوكراني وعدد القتلى الروس، لكان الرقم بالملايين). وأرقام الغضب تل أبيب. هذه هي السيادة الكاملة التي وعد بها أنور السادات وحسني مبارك: إسرائيل انسحبت من سيناء على أن يكون لها هي - وليس لمصر - السيادة عليها وحقّ تقرير نوعية الأسلحة المسموح بها على الأرض المصرية. هدّد نتنياهو محمد مرسي: إمّا أن تسحب القوات المصرية من سيناء في غضون سبعة أيام، أو أطلب من الكونغرس الأميركي أن يوقف المساعدات السنوية لمصر. سحبت مصر قواتها من سيناء بعد أيّام من التهديد الإسرائيلي. ويزعم نتنياهو أنه كان لدى الحكومة الإسرائيلية معلومات استخبارية مفادها أن الحكومة المصرية كانت عازمة على حلّ المؤسّسات الديموقراطية في مصر، وفرْض نظام حكم إسلامي مُتسلّط. وهذه كذبة أخرى لنتنياهو، خصوصاً أنه لم يكن هناك أيّ معلومات في هذا الصدد لدى الحكومة الأميركية المتغلغلة، من خلال أجهزة استخباراتها، في كل قطاعات الاستخبارات والجيش في مصر. على العكس من ذلك، وبصرف النظر عن الرأي في الإخوان ونفاقهم خصوصاً في مسألة الصراع العربي-الإسرائيلي، فإن مرحلة الإخوان كانت الأكثر حريّة في تاريخ مصر، وكان محمد مرسي الرئيس الوحيد المُنتخب ديموقراطياً في تاريخ مصر المعاصر، مع أن شعبيّة جمال عبد الناصر في زمانه فاقت شعبيّة كل الزعماء العرب مجتمعين، في داخل مصر وخارجها.

ويوجّه نتنياهو نقداً شديداً إلى مارتن إنديك، والأخير كان المؤسّس الواسع النفوذ لـ«مؤسسة واشنطن» (الذراع الفكريّة للوبي الإسرائيلي في واشنطن والتي يستعين سامي الجمّيل، في لبنانا، وفي «حزب الكتائب» بمتخرّجين فيها كمستشارين أساسيّين له). وقبل أن يؤسّس «مؤسسة واشنطن» وديدرها، كان إنديك، بعد هجرته من أستراليا، موظّفاً في «إيباك»، أي جهاز اللوبي الإسرائيلي الرسمي في واشنطن. وإنديك، قبل تعيينه من قِبَل إدارة بيل كلينتون سفيراً لدى إسرائيل ثم مساعداً لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى، كان شديد التطرّف في مناصرته لإسرائيل، تغيّرت مواقفه بعض الشيء عبر السنوات، وأصبح «الليكود» الإسرائيلي معادياً له. يقول عنه نتنياهو، إنه من المؤمنين بمقولة مركزيّة القضيّة الفلسطينية، ويصفه بأنه «كان معادياً لي بصورة استثنائية». وعندما قرّر أوباما أن يقصف سوريا ردّاً على أخبار غربية عن استعمال السلاح الكيميائي من قِبَل النظام السوري، اتصل بنتنياهو أوّلاً، قبل إعلام الكونغرس رسمياً. لن تتنياهو عبّر عن دهشته وامتعاضه لأنه كان يريد قصفاً فورياً من قِبَل أميركا ضدّ أهداف سورية.

واجأ نتنياهو أمام المسؤولين الأميركيين عن ضرورة ضرْب إيران، وأراد أن تقوم أميركا بقصفها بالنيابة عن إسرائيل، لكن أوباما أجابه بأنه لا يرى أن على أميركا أن تتحرّك عسكريّاً بقوّة كما كانت تفعل في السنوات السابقة، وبأنه ارتاى أن عليها أن تخفّف من وطأتها الحربيّة. ضدم نتنياهو بما قاله له أوباما. هذه هي أميركا، العصا الغليظة التي تستطيع إسرائيل أن تستعين بها متى تريد، أو متى يريد نتنياهو. بوقاحة، يقول نتنياهو ردّاً على دعوة أوباما: «أنا أريد أن آكون غوريلا بوزن 1200 رطل وليس بوزن 800 رطل». ويسخر من مفهوم «القوّة الناعمة» الذي كان يتردّد على ألسنة المسؤولين الأميركيين في إدارة أوباما، قائلاً: «إن القوة الناعمة جيّدة، لكن القوة الصلبة أفضل». وصورة نتنياهو عن إدارة أوباما لا ترتبط بالواقع بتاتاً. هو يصوّر إدارةً تتجنّب استعمال القوة وتنزع نحو السلم واللاعنف. يقول إن أوباما كان ينظر إلى نفسه على أنه «مواطن عالمي» وليس أميركياً، وهذا مناقض لمسيرة رئيس أفرط، مثل غيره من الرؤساء، في ضخّ مفاهيم الوطنيّة الشوفينيّة، الاستعلائيّة والقائمة على نظريّة الاستثناء الأميركي. نتنياهو عاصر عهد نيكسون عندما كان طالباً، وعاصر عهد ريغان عندما كان ديبلوماسياً، وهو ينظر إلى التجربتيْن كمثال محتذى للعالم أجمع. لكن ما يغضّ النظر عنه، هو أن مثال كارتر وأوباما، مع أن الخطاب والتسويغ يختلفان بين الإدارات، مفهوم القوة الأميركية ونشْر القوات الأميركية حول العالم يبقى هو نفسه، وإذا كان هناك من استثناء، فإنه يكمن في مثال دونالد ترامب لأنه وحده لم يشعل حرباً جديدة، مع أنه استمرّ في شنّ حروب بدأها أسلافه قبله (كانت أسباب ترامب متعلّقة بنظرته إلى مصلحة الاقتصاد الأميركي وضرورة الانكفاء العسكري، نسبيّاً). طبعاً، لم يمتنع ترامب أبداً عن استعمال القوة المفرطة.

حاول جون كيري، خليفة هيلاري كلينتون في وزارة الخارجية، حثّ نتنياهو على التوصّل إلى اتفاق سلام مع الفلسطينيين. صارحه نتنياهو بأنه لا يحيد عن حقّ إسرائيل (من خلال الجيش ومن خلال الـ«شين بيت») في القضاء على «خلايا إرهابية» في كل الأراضي الفلسطينية، حتى بوجود دولة فلسطينية. هذه رؤية إسرائيل للسيادة الفلسطينية على دويلة فلسطينية. وإذا كانت إسرائيل لم تسمح، ولن تسمح، لمصر بالسيادة على سيناء، فإنه من المستحيل أن تسمح لأيّ سلطة فلسطينية، ولو كانت عميلة مثل سلطة أوسلو، بالسيادة على نذر يسير من الأراضي الفلسطينية. فسّر نتنياهو الحقّ الإسرائيلي، بالقول: «إن الفلسطينيين ببساطة لا يقومون ولن يقوموا بالمهمّة». أكّد له جون كيري أن أميركا ستدرّب فرقاً فلسطينية كي تقوم بالمهامّ التي تطلبها منها إسرائيل ضدّ الشعب الفلسطيني. ويقول إن كيري عرض عليه ترتيب زيارة سريّة له إلى أفغانستان كي يرى بأمّ عينه النجاحات الأميركية الكبيرة في تدريب الجيش الأفغاني. يذكّر نتنياهو بأحاديث بين الحكومة الإسرائيلية وجورج شولتز في الثمانينيات. ويقول إن شولتز، في عهد أمين الجميل، حاول إقناع الحكومة الإسرائيلية بالانسحاب من لبنان، وشجّعها بالإشارة إلى التدريب الأميركي للجيش اللبناني كي يسيطر على لبنان بعد انسحاب القوات الإسرائيلية. لكنه يقول إنه حاجّ شولتز ضدّ الفكرة، إذ اعتبر أن «قوات راديكالية» ستسيطر. وتوقّع أن قوّات الجيش المدرّبة من قِبَل أميركا ستنهار بعد انسحاب إسرائيل. وقال أيضاً إن ذلك ما حصل في عام 2000. طبعاً، يبرّئ نتنياهو على كتفه باستمرار، مثنياً على بُعد نظره وصحّة توقّعاته في كل ما يجري حول العالم. ليس هناك ما يحصل لم يكن نتنياهو قد توقّعه من قبل. لكن مقارنة لبنان مغلوطة هنا، لأن الجيش اللبناني، في عهد أمين الجميّل، كان جيشاً مُسيّراً من قِبَل أميركا وإسرائيل، وهو بالفعل انهار أمام غضبة الشعب اللبناني خارج المناطق الشرقية. أما جيش لبنان في عام 2000، فكان جيشاً مقاوماً ردّبه وأشرف على عقيدته العسكريّة الوطنيّة إميل لحّود، الرئيس الوحيد في تاريخ لبنان الحديث الذي كنّ عقيدة عداء ضدّ الصهيونيّة، والذي مارس سياسة غير طائفيّة في قيادة الجيش.

لكن نتنياهو على حقّ في نظرته إلى السياسة الأميركية، وأن الإدارات الأميركية تبالغ دوماً في تقدير نفوذ حلفائها (من غير الإسلاميين) في المنطقة العربية. ونتنياهو يعرض بكرم صدّ الإسلاميّين عبر الحفاظ على الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. وفي حديثه عن المهاجرين الأفارقة إلى فلسطين المحتلّة في عام 2013، لا يجد نتنياهو غضاضة في التعبير عن كونوانته العنصرية، وهي مكونات على أساس الفكر الاستعماري العنصري الذي يعتمد على الفصل العنصري والتمييز المقصود في المعاملة وفي رصد الميزانيّات. يصف هجرة الأفارقة بـ«سَيْل من المهاجرين غير الشرعيّين من أفريقيا». المفارقة في وصف مهاجر أميركي لمهاجرين أفارقة بـ«غير الشرعيّين»، يلخّص ببساطة تاريخ الفكر العنصري الإسرائيلي.

(يتبع)

* كاتب عربي - حسابه على تويتر @asadabukhalil

بطن حكّام إسرائيل ان حالة العداء العربي ضدّ الكيان العبري هي حالة مصطنعة هندستها وادارتها انظمة عربية مستبدة (أ ف ب)

> يزعم نتنياهو أنه كان لدى الحكومة الإسرائيلية معلومات استخبارية مفادها أن الحكومة المصرية كانت عازمة على حلّ المؤسّسات الديموقراطية في مصر، وفرْض نظام إسلامي مُتسلّط

و... ماذا عن سبب الأزمة؟

سعد الله مزرعاني *

المعاناة أضخم من أن توصف. الخسائر أفدح من أن تُعدّ أو تُحصى. الارتكابات ارتقت إلى مستوى الجريمة باستهدافها شعباً ودولة ووطناً. والأنكى أن الكارثة مستمرّة. لا مؤشرات، حتى الآن، وبعد ثلاث عجاف، إلى وقْف الانهيار وإلى تدارك وتفادي المزيد من الكوارث والآلام. إلّا أنه، وعلى رغم ما أشرنا فقط إلى عناوينه، ثمّة ما هو أدهى وأخطر. إنه المخادعة في تمويه أسباب الأزمة ـ الكارثة، وفي التمسُّك بمصدر الخلل والعجز والفشل، وفي استمرار المداواة بنفس الداء! هذا سبب آخر وأخطر لمراجعة المقاربات في شأن الأزمة: في أسبابها وفي تفاقمها، وفي المسؤوليات عنها، وفي العجز عن علاجها، وبالتالي، في استفحال أضرارها ومخاطرها. ولعلّه من الأجدى، في نهاية هذه السنة، وهي السنة الثالثة للكارثة المتمادية، أن نتوقّف عند هذه المسألة لا أن نستغرق، فقط، في تعداد الضحايا والخسائر: ما هو قائم وما هو متوقّع، وكلاهما مخيف وقاتل ومدمّر ومجرم!

أجل، في المحطّة الراهنة، وبعد مضيّ ثلاث سنوات ونيف، ما زلنا ندور في الحلقة المفرغة القاتلة إيّاها: الإمعان في تجاهل أسباب الأزمة عبر المراوحة في النظام السياسي نفسه الذي ولّدها. العجز، حتى عن الحدّ من الخسائر بسبب إيكال أمور وشؤون البلاد والعباد إلى الطغمة الحاكمة نفسها التي ارتكبت ونَهبت وأجرمت، بكل ما اكتنزته من خبرة الأذى والأنانية والفئوية، وكل ما اختبرته واتقنته من أساليب التضليل والفساد والخبث والاحتيال والخداع...! هكذا، بكل وقاحة وسلاسة وإصرار وإنكار، تواصل الطغمة الحاكمة أساليبها وألاعيبها وصراعاتها ومناورتها، وكأنّ شيئاً لم يَحدث: كأنّ ما أصاب لبنان واللبنانيين هو أمر عابر لا أب له ولا أم، أو أنه رجس من عمل شيطان مجهول رجيم!

ما يبعث على التعجّب والاستفزاز أكثر، أن الطغمةَ الحاكمة، لم تفلت فقط من الحساب فالعقاب، كلياً أو جزئياً، بل هي عموماً، وبعضها خصوصاً، أمعن في السعي إلى تأبيد النظام الفاشل عبر المزيد من توطيد أركانه وتعميم «فضائله»... أما بعضها الذي يدّعي التمايز والمعارضة، فيروّج للانقسام في حال فشلت أهداف أسياده أو تعذّرت تسوية جديدة للتقاسم. هذا ما يجري التحضير له حالياً، بشكل صريح يتردّد في الإعلام، ويُعدّ له في الغرف المغلقة السوداء، الداخلية والخارجية. أمّا الذريعة الجاهزة، فهي تناقض الثقافات والعادات والسياسات والتوجهات والعلاقات الخارجية.

يقع الإعداد أو التخطيط أو التلويح بالتقسيم، أساساً، في نطاق مشروع تآمري تفتيتي شامل ومتواصل. توسّل ذلك المشروع، في لبنان، أشكالاً عديدة: عسكرية، كالغزو الصهيوني للبنان عام 2006، وقبله عدوان 1982. ثم، سياسية، عبر محاولة السيطرة على السلطة واستخدامها في إثارة نزاع داخلي. ومن الأساليب المعروفة أيضاً، القديمة ـ الجديدة، إثارة الفتن الطائفية والمذهبية. اتخذ ذلك المشروع، في العقدَين الماضيَين، خصوصاً منذ الغزو الأميركي للعراق واحتلاله عام 2003، صيغة «الشرق الأوسط الكبير» (البوشي)، من ثمّ صيغة «صفقة القرن» (الترامبيّة). وكلاهما رمى إلى الهيمنة على منطقتنا، كما استهدف دعْم مطامع وعدوانية المشروع الصهيوني، وخصوصاً ضرب المقاومة ضدّه. تلك المقاومة التي تميّز بها الشعب اللبناني واستطاعت أن تتحوّل إلى عامل مؤثّر في التوازنات الإقليمية، ومحفّز على مستوى مجمل الصراع مع العدو الصهيوني المغتصب والطامع (وخصوصاً في صفوف الشعب الفلسطيني).

لهذا المشروع الاستعماري (وصنيعته الصهيوني) أتباع محلّيّون سبق أن اختبروا فشل (بل مرارة) المراهنة على العدو الإسرائيلي خصوصاً. وعلى رغم ذلك، يواصلون ذلك الرهان الخاطئ والخائب مجدداً... وفي خدمة المشروع المذكور، تُجند العصبيات والفئويات والفساد والمال والإعلام والانقسامات والمصالح الفئوية. يشارك الفريق المحلّي التابع، وهو جزء من منظومة الحكم، ولو معارضاً جزئياً، في التمسّك بالنظام وبمنظومة السلطة والحكم، وبالطائفية والعصبيات أداةً لسيطرة طبقة الرأسماليين الكبار. إنه اعتراض على بعض السياسات لا على السبب الأساسي للأزمة. وهو بذلك (كما بعض قوى التغيير التي استغلّت النقمة الشعبية لتتسلّق إلى موقع أو مقعد)، لا يتبنّى من مفهوم التغيير سوى استبدال الأشخاص، دون المساس بالنظام السياسي ومنظومته التحاصصيّة وشبكة علاقاته الخارجية، خصوصاً مع القوى الاستعمارية وقوتها الأساسية: النظام الأميركي.

في مجرى استعراض القوى التي تتحدّث عن «الإصلاح»، تقع تلك الفئة التي تضع على رأس أولوياتها مسألة تغيير، معادلات وتوازنات التقاسم والتحاصص في النظام الراهن، وعلى قاعدة تكريسه وتأبيده! ويمثّلها، اليوم، بامتياز «التيار الوطني الحر» الذي ينادي، بالنسبة إلى الطور الحالي من الأزمة، بتكامل صفقة التسوية ما بين موقعَي رئاسة الجمهورية ورئاسة الحكومة. وهو قد أشار، في غير مناسبة، قديمة وجديدة، إلى وجوب إحداث سلسلة تغييرات في الصلاحيات والتوازنات، وإلى إجراء تعديلات دستورية تطيح بعض إصلاحات «الطائف» التي لم يُطبّق أصلاً الأساسي المهمّ منها! كرّر التيار العوني في هذا الصدد، مطالبته، أيضاً، باعتماد «اللامركزية الإدارية والمالية»... والفدرالية: إذا تعذّر تحقيق الأساسي من مطالبه!

في المقابل، وكما «التغييريّون» الجدد، وقف التغييريّون القدماء عاجزين عن التوحُّد والتشكّل في إطار وخطّة وقيادة وأولويات. ترك ذلك الساحة خالية لقوى العبث والنهب والفئوية الحليّة، وقوى التدخّل الخارجي التي تقودها واشنطن من أجل تشويه التحرّك وزجّه في معركتها مع المقاومة وسلاحها، دون المساس بسبب الأزمة الداخلي المتمثّل في الطغمة الحاكمة ونظامها ومنظومتها التابعة والمأجورة. هكذا، في النتيجة، جرى تبديد جهود ونضالات مئات الآلاف من الذين جذبتهم الأزمة إلى الشارع، ليجدوا أنفسهم في مهبّ الضياع والعبثية... ومن ثم ضحيّة تسخير واستغلال: خدمةً لهدف استعماري ـ صهيوني مباشر!

هكذا، فيما تتفاقم الأزمات، ومعها المعاناة والخسائر، وفيما بلغ بعض «الثوار» حافة اليأس (بإلقاء المسؤولية على الشعب!)، هل يصل الحريصون على لبنان وإنجازات شعبه (في حقل المقاومة خصوصاً)، وقوى التغيير الجذري، والمتضرّرون الذين يشكّلون الأكثرية الساحقة من الشعب اللبناني، إلى وضع الإصبع على الجرح وتحديد سبب المشكلة، ومن ثمّ، السعي إلى علاجها عبر مشروع وطني جامع؟

ذلك هو الرهان الإنقاذي الوحيد الذي ينبغي أن تُبذل من أجله الجهود وتُجنَّد الطاقات.

* كاتب وسياسي لبناني

أنا القويّ، وموتي لا أكرّره

| يوسف فارس

لا تكفّ فلسطين عن إدهاشنا. كلّما اعتقدْنا انها تعبت او ينست او استكانت او اطفأت نائرة الامل او قررت إدارة ظهرها او اشاحت بوجهها عنّا، عادت لتُبهتنا وتُحيّرنا وتُلقي بنا في مهاوي العجز عن ردّ الجميل. في «هذه الدنيا شديدة الاعوجاج»، كما يصفها «مولانا» جلال الدين الرومي، ليس لدينا إلّا فلسطين لنطفئ بها احزاننا العميقة، ونسخ ثقوباً لا قرار لها في اروحنا التي اضْناها البحث عن مخرج من دوّامة التوحّش الممارس عليها وعلينا. على ان السعادة التي تهبنا إيّاه تلك الارض بكلّ ما فيها ومن فيها، ليست من النوع الذي يقع على الخطّ الافقي للمُتع المادّية، بل هي من صنف مختلف تماماً، يسمو فوق الممكن، ويتعالى على العاديّ. ويهيم بالاستثناء. إنها البهجة التي حملها إلينا ولا يزالون يحملونها، فدائيّو فلسطين ومشتبكوها وافهاتهم وآباؤهم، والذي سطّروا في هذا العام الذي نُوقّعه باسمائهم تحيّة وامتناناً لهم، صفحات متلألئة تُعجز الوصف، وتُضني الكلمات، وتُنهك المجاز والبلاغة. إذا كان الشعر العربي قد قال يوماً: «تَعدّدت الاسباب والموت واحد»، فإن الموت هنا ياتي ليشذّ عن القاعدة، معلناً انه لا يتكرّر، وانه لا يُناظره شيء، وانه لم يقع على من اصابهم بل هُم من وقعوا عليه، بعدما ادركوا الّا سبيل سواه للانعتاق من ربقة الاحتلال. في هذه الصفحات، احتفاءً باولئك «المجانين» - او ببعضهم، مع الاعتذار إلى من لم تستطع «الاخبار» الوصول إلى صفحات من حياتهم - في وجه العدو، وفي وجه زُعاته وحلفائه، والاهمّ في وجه المُطبّعين، وخصوصاً منهم الجُدد، الذي يصرّون على تقديم «تُحف استثنائية» من التقزّم والصعلكة، لم يعرف لها العرب مثيلاً.

(الأخبار)

أنا ابن أبي، وابن أمّي... ونفسي

رعد خازم... ذاك الذي ضجّت بصمته الآفاق

«اللهم ليلةً كليلة رعد»؛ طوال الأشهر التي أعقبت عمليّته في شارع ديزنغوف وسط مدينة تل أبيب، لهج بذلك الدعاء الآلافُ ممّن احتفظوا ببهيج صنيعه في دواخلهم. حين تَحنق النفوس بالغيظ عقب كلّ جريمة اغتيال، يَحضر طيف ابن الـ29 ربيعاً، شاباً أنيق المظهر، يقف في مقابل شارع يزدحم بالمقاهي والمحالّ التجارية، يُشهر في تمام الساعة التاسعة من مساء يوم الخميس 2022/4/7 سلاحه، آذناً لعقارب التاريخ بأن تُسجّل وقائع انتقامه. مهندس الحاسوب المبدع، الذي يلقّبه أهل مخيم جنين بـ«السايبر»، وُلد في عائلة صُنعت الشهادةُ والتضحيةُ سيرتها. والده هو فتحي خازم، أحد أبرز مطارَدي الانتفاضة الأولى، والذي سيغدو بعد استشهاد نجله أباً روحياً للمقاومين. أمّا خاله، فهما عثمان السعدي (أبو العواصف)، أحد شهداء الثورة الفلسطينية في لبنان؛ ومحمد السعدي، قائد منظّمة «الفهد الأسود» الذي كان قد قضى في اشتباك مسلّح في جنين مطلع التسعينيات؛ وزوج خالته هو القائد في حركة «الجهاد الإسلامي»، الشيخ بسام السعدي، الذي أمضى حياته متنقّلاً بين سجون الاحتلال.

يصفه مَن عرفه بحدّة الذكاء، والعبقرية في مجال شبكات الإنترنت وهندسة الحاسوب. شخصيّته وادعة مسالمة، لكنه «غامض، حيث لم يَجد أحد من جيرانه تفسيراً لصمته الدائم». يحقّ القول إن رعد أفرغ، برفقة شقيقة الشهيد عبد الرحمن، قدْراً وافراً من مخزون ما يمكن أن يقولاه بلسانَيهما، في صنيعهما البطولي في «ديزنغوف»، والذي أدّى إلى مقتل ثلاثة إسرائيليين، تَبيّن لاحقاً أن اثنين منهم خدما في شعبة الاستخبارات العسكرية في جيش الاحتلال، فضلاً عن إصابة 15 آخرين. عملية شكّلت فاتحة عصر جديد، وألهبت حماسة الآلاف من أشباههما، بعدما استنفد ما لديه من رصاصات، استنفر انسحابُه المدروس من مسرح العملية، نحو 1300 جندي إسرائيلي للبحث عنه بين شوارع تل أبيب ويافا. في أحد مساجد المدينة العروس، صلّى فجر الجمعة الأولى من رمضان، رافضاً تسليم نفسه، ومعيداً كَرّة الاشتباك بما تبقّى لديه من رصاصات. قُتل رعد الصامت دائماً، تاركاً لفلسطين كلّها أن تزهو بضجيج الفعل العظيم.

عديّ... وما أدْراكَ ما عديّ؟

قَبالة حاجز «معاليه أدوميم»، سَجّل عدي التميمي ظهوره التاريخي الأخير. ما قاله محمود درويش مجازاً: «اضرب عدوّك بي»، طبّقه ابن مخيم شعفاط واقعاً. يَفتح جنديان مخازن الرصاص تجاه جسده، فسيتمرّ هو في إطلاق النار. تخترق الطلقات قدَميه، فيواصل الاشتباك، قافزاً في الهواء، ومحاولاً استراق مزيد من الثواني، قبل أن يَسقط ويتابع إطلاق الرصاص حتى النفَس الأخير والأثير. ستَكتب تفاصيل تلك الثواني سيرة المطارَد المشتبك بمِداد الخلود. ابن الأعوام الـ23 كان قد نفّذ عمليّته الأولى على حاجز شعفاط في مساء 2022/10/8، حيث وثّقته كاميرات المراقبة أيضاً، يَخرج من سيارة أجرة بكلّ هدوء وثقة، ثم يُطلق الرصاص على رؤوس الجنود والجنديّات، فيَقتل إحداهنّ، قبل أن يلوذ منسحباً. طوال أحد عشر يوماً من البحث والمطاردة، تحوّل الشاب الأيقونة إلى ظاهرة ملهمة؛ إذ خلق المئات من شباب مخيّمه أوّلاً رؤوسهم كي يعقّدوا عمليات البحث عنه، ثمّ أضحى «كاركتير» شخصيته أيقونة يتمثّل بها الشبّان حتى خارج فلسطين.

«شابّ متأنّق دوماً، يفيض بالقوّة والإيمان. رياضي من الطراز الأوّل، يمارس لعبة كمال الأجسام. يعشق الأطفال، ويُكثر مشاكستهم، شهم وصاحب نخوة»، بتلك الأوصاف تحدّث عنه جيرانه، وبأكثر من ذلك حيّاه الجميع، صحافيون وقادة فصائل، مقاومون وسياسيون، استطاع الشابّ «الأقرع» أن يحتلّ نبض قلوبهم. في وصيّته، أدرك عديّ أن عمليته هي «نقطة في بحر النضال الهادر»، وعلم أيضاً أنه سيستشهد «عاجلاً أم آجلاً»، و«(أنّني) لم أحرّر فلسطين بالعملية، ولكن نفّذتُها واضعاً هدفاً أساسياً»، هو أن «يَحمل مئات من الشباب البندقية مِن بَعدي». قضى عديّ محقّقاً الهدف الذي أراد، ليسجّل العام الذي نُوقّعه باسمه وبأسماء رفاقه الفدائيين، أكبر حضور لعمليات المقاومة وشهدائها منذ 15 عاماً. لقد افتتح التميمي عصر «الجيل الفلسطيني» الجديد، الذي يعي تماماً أنه «الآن حرّ وحرّ وحرّ».

إبراهيم النابلسي... عبق الورد والبارودة

لن يهرب «صاحب الأرواح التسع» هذه المرّة. أدرك، في صباح ذلك اليوم، أنه في الساعات الأخيرة من حياته؛ إذ لا يكفي ما بحوزته من رصاص لمجابهة نحو 500 جندي من جيش الاحتلال، اقتحموا البلدة القديمة في نابلس لتصفيته. «أمّي، أنا إبراهيم... أنا استشهدت»، كانت تلك آخر الكلمات التي حكاها لوالدته، تقول أم إياد، في حديثها إلى «الأخبار»: «قلتُ له بلهفة، رح تهرب منهم يا حبيبي، مثل كلّ مرة يا إبراهيم، ردّ قال أنا بحبك، أنا استشهدت يا أمي». ابن الـ24 ربيعاً كان قد سجّل اسمه في قوائم المطلوبين مبكراً، حيث شارك في السادسة عشرة من عمره، مع رفاقه محمد الدخيل وأدهم مبروكة وأشرف مبسلط، في زرْع عبوة ناسفة قرب موقع لجيش الاحتلال على جبل جرزيم. وخلال سنوات من النشاط المقاوم، أسّس مع نفر قليل من أصدقائه، ما عُرف لاحقاً بـ«خلية نابلس» التي ستغدو بعد رحيله مجموعات كبيرة بمسمّيات عدّة، يتسابق المئات من الشبّان للانضمام إلى صفوفها، وتتصدّر مشهد الاشتباك بتنفيذ العشرات من عمليات إطلاق النار.

«يحبّه الكبار والصغار»، أمّا هو فـ«متيّمٌ بالصغار على وجه الخصوص»، تقول والدته، وتُواصل: «كان بهجة البيت، بريء ومتواضع، طيّب وعذب الخلق، يترك خلفه عبق الورد أينما حلّ». يروي عن بساطته وعزّة نفسه أيضاً، أبو جمال، شقيق صديقه الشهيد أدهم مبروكة: «كان إبراهيم ورفاقه الثلاثة يعملون يوماً أو يومَين في الأسبوع برفقتي في مجال الديكور والجبس كي يؤمّنوا مصروفهم الشخصي، أربعة شبّان يأكلون من وجبة واحدة، يتقاسمون باكيت سجائر واحد، كي لا يطلبوا من أحد حاجتهم». في أحد أعياد الأم، أهدى «أبو فتحي» والدته خاتَم فضة، كان قد اشتراه من مصر «أون لاين» منقوشاً عليه: «لا تحزن إنه حيّ». تستذكر أم إياد، وهي أمّ لثلاثة أبناء وابنة، يعتقل الاحتلال نجلها الأكبر إياد إلى اليوم، تلك اللّفتات بالقول: «إبراهيم كان يهيّئني دائماً للحظة استشهاده، وحين كنت أحاول إقناعه بأن يلتفت إلى حياته ومستقبله، كانت طريقته البسيطة في الإقناع لا تُبقي لديّ ما يمكن قوله».

بعد أن كثّف الاحتلال من مطاردته، وظهر «البطل» مودّعاً رفاقه واحداً تلو الآخر، أجمعت على حبّه القلوب، وتَحقّق ما كان يتمنّاه من أن «يرى الناس صورة المقاوم الحقيقي». قضى «المطارَد الأوّل» في 2022/8/9، بعد حصار استمرّ أربع ساعات في حارة الحبلة في البلدة القديمة في نابلس، تاركاً رسالته المسجّلة وصيّة لعشرات المقاومين مِن خَلفه: «أنا بحب أمي، حافظوا على الوطن من بَعدي، بوصّيكم ما حد يترك البارودة».

أدهم مبروكة... لم يستوحش طريق الحقّ

تجتمع في مسيرة الشهيد أدهم مبروكة، الشهير بـ«الشيشاني»، أبلغُ معاني التضحية والاغتراب. وحيداً بدأ الدرب برفقة أصدقائه الشهداء إبراهيم النابلسي وأشرف مبسلط ومحمد الدخيل، ووحيداً تحمّل أكلاف المواجهة مع الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة من جهة، وملاحقة جيش الاحتلال من جهة أخرى. يقول شقيقه الأكبر أبو جمال في حديثه إلى «الأخبار»: «أدهم صديقي الحميم، إنسان عصامي جداً، عزيز النفس، اعتُقل مرات عدّة في سجون السلطة، أطولُ تلك الاعتقالات تجاوزت مدّته العامين ونصف العام، خرج من السجن وقد خُلع كتفه من التعذيب والشبح». الطريق الذي بدأه «الشيشاني» برفقة «خلية نابلس»، تحمّل أعباءه المادّية من كدّه وعرق جبينه؛ إذ إنه وعلى رغم إصابته البالغة، كان يجتهد في العمل مع شقيقه في مجال التشطيب والديكور والبناء، ليؤمّن مصاريف المطاردة. «اشترى بندقيّته من عَرق جبينه»، يقول شقيقه، ويتابع: «بعد استشهاده، اجتهدنا في البحث عن مَن لديه حق أو دَين مادي في عنقه، اكتشفنا أنه مَدين بأكثر من ألفَي دولار هي ما تبقّى من ثمن بندقيته».

تأثّر «الشيشاني»، في أدبيات المقاومة و«الاتّصال الإلهي»، بكلٍّ من الشهيدَين جمال الكيال وجميل العموري. عايش إحساس التعلّق بسيرتهما، وكتب عن ذلك في صفحته على «فايسبوك»: «إذا تعلّقتَ بشهيد ما، فاعلم أن هذا الشهيد اختارك لتُكمل مسيرته، لذلك كُن فكرة». تصفه والدته التي رفعت إشارة النصر أمام الآلاف من مشيّعيه، بالقول: «كان حنوناً يحبّ الخير والناس، عنيداً في خياراته، لم يلتفت إلى تهديدات ضابط المخابرات الإسرائيلي المستمرّة، رَفض تسليم نفسه، وآثر أن يمضي في طريقه حتى الشهادة». يكمل شقيقه الأكبر أبو جمال: «كان خجولاً وحسّاساً، يستحي من أن يحمل سلاحه أمام سكّان الحي، كي لا يكون هذا السلاح مَدعاةً للتظاهر والاستعراض، يُرسل من يشتري له أغراضه حتى يتجنّب إصرار أصحاب المتاجر على أن لا يأخذوا منه الأموال بدافع الكرم والحب».

تَكشف تفاصيل عملية اغتياله ورفاقه في 2022/2/8، قدْر الغيظ الذي اعتمل لدى المؤسّسة الأمنية الإسرائيلية من نشاطاته، حيث أطلقت قوّة «اليمام» الإسرائيلية الخاصة النار عليه مِن مسافة صفر، برفقة صديقَيه الدخيل ومبسلط. في مراسم التشييع المهيبة، هتف الآلاف من مشيّعيه: «ارفع إيديك وعلّيي... الموت ولا المذلة»، قبل أن يقرّر المئات أن يواصلوا الطريق التي يرفضون بها المذلّة.

تامر الكيلاني... الطلقة المنفردة

لم تفلح كلّ محاولات ذوي الشهيد تامر الكيلاني في إقناعه بأن يترك الطريق الذي «اختاره بكلّ قناعة وإيمان». «الخبّاز وصانع الحلويات المبدع»، الذي قضى نحو ثُلث سنيّ حياته في سجون الاحتلال، كان مسكوناً بالمقاومة منذ صباه. يَذكر أحد رفاقه أن استشهاد القيادي في كتائب الشهيد أبو علي مصطفى، يامن فرج، عام 2004، كان له الأثر الأبلغ في حياته؛ إذ عُرف بكنية «أبو يامن»، وهو لم يتجاوز الـ14 عاماً. بين الـ13 والـ20 من عمره، أصيب ثلاث مرّات في مواجهات مع العدو، آخرها كانت الأكثر حرجاً، حين نجا فيها من الموت بأعجوبة. كما اعتُقل ابن الـ33 ربيعاً عدّة مرات في سجون الاحتلال، ليقضي وفق ما قاله والده سفيان، ما مجموعه تسعة أعوام من عُمره خلف القضبان. قبل نحو ثلاثة أعوام من استشهاده، وفي الأشهر الأخيرة من سجنه الأخير، ارتبط برفيقة عمره شيماء، وأنجب منها بعد زواج استمرّ عامَين طفله البكر يامن، ثمّ طفلته وتين. تقول أم يامن في حديثها إلى «الأخبار»: «في بداية المطاردة، جلس معي وخيّرني بين أن نستمرّ في زواجنا، أو أتركه وأبحث عن مستقبلي في حياة أكثر استقراراً (...) أنا أخت لشهيد وأسير محرَّر، كان ردّي وأنا أرى أن الشهادة هي مصيره، أنّني سأبقى معه إلى النهاية».

خلال أشهر المطاردة الساخنة، نشط في تأسيس مجموعات «عرين الأسود» مع الشهيدَين وديع الحوح ومحمد العزيزي، ونفّذ العديد من عمليات إطلاق النار، كما خطّط لتنفيذ عمليات تفجيرية أخرى في مدن العمق. أدرك المقاوم الشابّ مبكراً أنه على موعدٍ مع الشهادة. تقول زوجته: «كان محبّاً لأولاده ولزوجته، ومحبّاً للحياة أيضاً، لكنه كان يردّد لي دائماً أن الله أحنّ منا علينا، زرع فينا حبّ فلسطين وحبّ الله عزّ وجلّ، إلى الحدّ الذي أصبحنا فيه نحبّ ما يفعل رغم خوفنا عليه». «قنّاص لا تَخيب له طلقة»، يقول أحد رفاقه في «الجبهة الشعبية»، لافتاً إلى أن تامر احترف القنص، وكان يوصي رفاقه بأن يحفظوا رصاصهم، وأن لا يهدروه في العشوائية والاستعراض. خلال الاجتياحات، كان رفاقه المقاتلون يميّزون صوت طلّقاته من بين كثافة الأزيز: «طلّقات منفردة، ندرك أن كلّ واحدة منها عرفت طريقها بدقّة إلى أحد الجنود»، يضيف رفيقه.

تستذكر زوجته أيامه الأخيرة، حين احتفل بعيد ميلاده قبل استشهاده بأيّام معدودة: «زرتُه في البلدة القديمة، وكان تامر يغيب عنّا طويلاً، أمسك ابنه يامن الذي لم يتجاوز العامين، وصار يحدّثه، إيّاك يا بابا تتوهّم يوماً أنّي متت ببلاش، أنا سأرحل لأجل مستقبلك». تُواصل: «قبل استشهاده بدقائق كان يتحدّث معنا في مكالمة مصوَّرة، وطلب منّا أن نسامحه، ثمّ بعد خمس دقائق من انتهاء المكالمة، انفجرت به درّاجة نارية مفخّخة كانت مركونة في حي المطحوط في البلدة القديمة في نابلس». مضى تاركاً فينا وفي محبّيه وصاياه التي أضحت واقعاً: «الطريق إلى الأقصى... تُعبّده البندقية».

جميل العموري... قاتَل عدوّك لا مفرّ

كان من المفاجئ لأمّ جميل العموري أن تدرك أن ولدها ذا الوجه الطفولي البريء، هو القائد اللثم الذي سيُنسب إليه فيما بعد، تجديد حالة الاشتباك، بعد نحو 15 عاماً من القضاء على البُنى التحتية لفصائل المقاومة في الضفة الغربية المحتلّة بشكل شبه كلّي. ابن الـ25 ربيعاً، الذي لم اسمه في مخيم جنين، اضطرّ لترك الدراسة مبكراً ليعيل أسرته المكوّنة من سبعة أشخاص. تقول أم جميل، في حديثها إلى «الأخبار»: «اشترينا سيّارة أجرة ليعمل عليها، كان مكافحاً وعصامياً، يدّخر ما يستطيع، وفي أحد الأيام، دخل بيتنا وقد باع السيارة واشترى بثمنها بارودة (...) حاولت أن أقنعه بالزواج من دون جدوى». يلفت أحد عناصر «كتيبة جنين» التي سيرتبط تأسيسها باستشهاد العموري، إلى أن «الله مَنح جميل قدرة هائلة على التأثير في مَن حوله، وإمكانات قيادية لافتة. هو بخلاف مَن اشتبكوا بشكل فردي مع الاحتلال، بدأ بتأسيس خلايا المقاومة، ووجّه ببساطته وأسلوبه العذب، الشباب في مخيم جنين ونابلس إلى استثمار الإمكانات المحدودة، لصناعة حالة عسكرية مستدامة». أمّا عن فلسفة الاشتباك لديه، فهي: «قاتل عدوك كأنك في حلبة مصارعة رومانية، باغثْه وجهاً لوجه لتشلّ حسابات المنطق وردّة الفعل المدروسة لديه، ثمّ اختفِ»، بحسب ما يوضح رفيقه الشهيد محمد السعدي في مقابلة سابقة.

بين جنين ونابلس تنقّل العموري، تاركاً أثره في جيل جديد من الشبّان الذين سيغدون في نهاية الـ2022 التحدّي الأكبر للمنظومة الأمنية الإسرائيلية. تقول والدته: «إلى اليوم، رغم فخري الكبير به وأنا أراه في عيون المئات من رفاقه الذين يزورونني دائماً، أحاول بصعوبة إقناع نفسي بأن ذلك الشابّ الجميل البريء، هو مَن أسّس حالة المقاومة الكبيرة». لم نجم العموري بعد تنفيذه عدّة عمليات إطلاق نار، كانت بأكورتها في كانون الثاني 2020، حيث أطلق النار باتّجاه جنود الاحتلال بينما كانوا يهدمون للمرّة الثانية منزلَ الأسير أحمد القنبع في مدينة جنين، واستمرّ بعد ذلك في تنفيذ عمليات إطلاق نار على الحواجز وخلال التصدّي لاقتحام المخيّم. ثمّ تطلّب الأمر من الشبح المختفي أن يَظهر علناً، فكان ظهوره الأوّل في كلمة ألقاها في المخيّم خلال معركة «سيف القدس». قال العموري منظّراً لمنهجه المقاوم: «شبابنا الذين تحمّلوا السلاح في الضفّة، لا تُطلقوا رصاصكم في الهواء، إنّ هذا السلاح أمانة في أعناقكم، وواجب ديني وشرعي أن يتوجّه إلى الاحتلال».

قضى «مجدِّد الاشتباك» كما يلقّبه رفاقه في 10 حزيران 2021، بعملية اغتيال نفّذتها «وحدة اليمام» الخاصة في جيش الاحتلال، فيما لا يزال جيش العدو يحتجز جثمانه إلى اليوم. تقول أم جميل: «أرْعبهم جميل حيّاً، وأرادوا أن يُخمدوا ذكره شهيداً، لذلك احتجزوا جثمانه، لكنهم تفاجؤوا بالمئات من أشباهه».

عبود صبح... مَن اشترته الحياة وباعها

«إذا يوم بتصحى بيقولولك عبود مات شو بتعملي؟»، كانت تلك الكلمات، هي نصّ رسالة صوتية بعثها الشهيد عبد الرحمن صبح إلى خطيبته ميرا. في ذلك الصباح، لم تكن الفتاة العشرينية تعلم أن الفارق بين نبوءة حبيبها والرحيل هي شهر ونصف شهر فقط. حينها، تجاهلت ما حكاه إليها قدَرها والشعور، إذ لا أحد يَقبل على نفسه التفكير في لحظة فراق أعزّ مَن يحب، لكن في النهاية قضى بطل «عرين الأسود». في صباح الرحيل، «وحده الله هو مَن ربط على قلبي»، تقول ميرا لـ«الأخبار» وهي تصف الأشهر التي عايشتها منذ رحيله في 2022/7/24، مضيفةً: «شعور هائل بالفقد». لكن لا شيء تَغيّر، فهي لا تزال تحتفظ بتفاصيل الأشهر السبعة التي عايشتها برفقته، فقد كان «رجلاً حقيقياً، وسنداً بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى».

أجمعت على حبّ «خيال البلدة القديمة» القلوب، فهو الشاب الشهم الذي عايش حياة اليسر المادي والنجاح الاجتماعي بأعلى مراتبه. يقول شقيقه سائر: «كان لديه حصان يحبّه كثيراً اسمه الأدهم، الحياة كانت فاتحةَ يديها لعبود، لكنه لم يكن مشترياً للحياة، كان قد اشترى الآخرة، أنا رأيته شهيداً قبل أن يرحل بأربعة أشهر». نقطة التحوّل في حياته، وفق خطيبته «أم آدم» كما كان يحبّ أن يناديها، بدأت في شهر رمضان الماضي. حينها، كثُرت الأيام التي يغيب فيها عن المنزل، وكثر حديثه عن الشهادة، وكان قد انخرط برفقة صديقه الشهيد محمد العزيزي في تأسيس مجموعات «عرين الأسود». وفي منتصف تموز الماضي، وعقب ليلة قضاها العُرسان في انتقاء «عفش» البيت، تفاجأت خطيبته صباح اليوم التالي بأنه ذهب إلى المحكمة ليُتمّ إجراءات الانفصال عنها، إذ إنه أصبح مطلوباً ينتظر حتفه في أيّ لحظة. تقول: «بعث لي برسالة كتب فيها: سامحيني، وكتاب الله ما حبّيت بنت قد ما أحببتك، اعملت هيك حتى ما أظلمك، سامحيني بعد استشهادي وما تدعي عليّ». رفضت ميرا وعائلتها فضْل الخطوبة، وردّت بالقول: «معلَ الموت»، الذي لم يتأخّر كثيراً، عندما قضى عبود ورفيقه العزيزي في اشتباكات مع قوات الاحتلال في البلدة القديمة في نابلس.

أنا القويّ، وموتي لا أكرّره

يوسف فارس

مقتنيات الشهيد فاروق سلامة

فاروق سلامة... أرقّ من حَمل السلاح

تحوّلت مراسم فرح العريس فاروق سلامة، القيادي في «كتيبة جنين»، إلى حزن عمّ البلاد بأكملها. ففي مطلع تشرين الثاني الماضي، استغلّت وحدة «اليمام» الخاصة في الجيش الإسرائيلي، انشغاله ورفاقه بتجهيز ذبيحة وليمة الفرح، واقتحمت المسلخ حيث يتواجد، وباغتَتْه بصلياتٍ من الرصاص. لم تكن ثمّة فرصة أفضل من تلك للنيل منه؛ فقد عايشته المؤسّسة الأمنية الإسرائيلية عن قرب، هو الذي تجاوزت سنوات اعتقاله المتفرّقة منذ كان طفلاً لم يتخطّى الـ15 عاماً، نحو ستّ سنوات. «عنيد وجريء، ولا يخشى الموت»، تقول والدته أم فادي سلامة في حديثها إلى «الأخبار»، وهي تستذكر المرّة الأولى لاعتقاله، مضيفةً: «كان شبلاً عمره 15 عاماً، حينما كان يشارك في رشق جنود الاحتلال بالحجارة على حاجز الجلمة القريب من مخيم جنين، أمسك به أحد الجنود، ولَطمه على خدّه، لم يَهرب، إنّما اقترب من غريمه الجندي، وبَصق في وجهه وحاول رد ضربته، ليُعتقل إثر فعلته تلك ويقضي عامين في السجن».

حين اعتُقل، لم يكن قد مضى على خروجه من السجن سوى أحد عشر شهراً. خلال تلك المدّة، لم ينجح فاروق في تنظيم صفوف «كتيبة جنين» فحسب، إنّما ساهم على نحو فاعل في بناء خلايا المقاومة في طولكرم وفي نابلس، واجتهد في دعم وتنظيم «كتيبة نابلس» ومجموعات «عرين الأسود». تقول أم فادي: «كنتُ أعلم أنه ناشط في المقاومة، لكنّني لم أعرف أنه قائد بهذا الحجم إلّا بعد استشهاده، كان يُشعرني دائماً أنه شابّ عادي لا يقوم بأكثر ممّا يفعله عامّة الشباب في المخيم». أمّا عن زواجه الذي قَبل به الشهيد كي لا يُخالف ما اشتهته له والدته، فتقول: «حاولتُ بفهمي الطيب أن أشتريه وأن أشغله عن هذا الطريق، في النهاية أنا أمّ (...) لم أشبع منه، قضى حياته بين الأسر والمطاردة، قَبل الزواج لأجلي، وعاش الفرح وعشتُه معه».

عاش «عريس فلسطين» في عائلة مناضلة. اعتُقل والده وإخوته مراراً، وجَمع السجن بينه وبين أبيه. آخر الأبناء المعتقَلين كان إيهاب، الذي ساهم في تأمين أسيرَي «نفق الحرية» أيهم كمجي ومناضل انفيعات، وأفرج عنه قبل أسبوع من زفاف أخيه، ليُعاد اعتقاله يوم اغتيال فاروق مجدّداً. يقول أحد رفاقه في «كتيبة جنين»، إن فاروق، وعلى رغم ما كان بيديه من صلابة ورجولة، إلّا أنه «أرقّ مَن حَمل السلاح»، لم يترك محتاجاً من دون مساعدة، ولم يمضِ يومٌ من دون أن يَطلب منّا أن نساعده».

متين ضبايا... يا سعدَ من نال الشهادة مخلصاً

يُشعرك النُّطق باسمه، بقدْر البأس الذي تَحمله شخصيته. هو متين ضبايا، أحد قادة «كتيبة جنين»، ورفيق البدايات إلى جانب الشهداء جميل العموري وعبد الله الحصري وداوود الزبيدي. يَحفظ أهالي المخيم الدروب التي سلكها خلال عامَين ونصف عام من المطاردة. تشهد على ابن الـ25 ربيعاً الأزقّة والجدران، وعشرات المواجهات التي لم فيها نجمه متقدّماً الصفوف، مقاتلاً على الطريقة التي تَوافق عليها مع رفيقه العموري: «كن قريباً من عدوك، تصبح أقوى». تقوم هذه الفلسفة العسكرية المبتدَعة على ضرورة تقليص المسافة بين المشبك وخصمه، لأن اتّساع الفارق المكاني يعطي العدو امتياز استخدام وسائل القتال المتطوّرة، ما يسمح له بتوظيف أسلحة القنص والتتبّع وكثافة النار، أمّا حين تُباغته من مسافة صفر، فإنك ستتفوّق عليه بإمكانات شجاعتك الذاتية، في مقابل ضعفه وارتباكه، فيُضحي السلاح الذي في يديه بلا قيمة. «مَن صَدَق العزم وجَدّ السبيل، يا سعدَ من نال الشهادة مخلصاً»؛ بهذه العبارة عَنْون «مشتبك المخيم» حسابه في «فايسبوك»، وقد سعى بعد خروجه من السجن إلى مقصده من دون تردّد. يقول شقيقه إسلام في حديثه إلى «الأخبار»: «في حياته، كان من أبسط الناس، عمل في تجارة الخضار، كسب رزقه من كدّه وتعبه، وحين استحالت الحياة العادية بعد المطاردة، عاش زاهداً فقيراً غير مكترث لزخارف الدنيا». «مكافح وحنون، وقريب من إخوته الخمسة»، يتابع إسلام حديثه، لافتاً إلى أن متين «انخرط في طريق المقاومة من دون أن يفصح

الشهيدان متين ضبايا (يمين) وعبد الله الحصري (يسار)

لعائلته عمّا يخطّط له، هو غامض للغاية، ثمّ أصبح في خطّ الدفاع الأول في كافة الاجتياحات». في 14 تشرين الأول 2022، تَقدّم صفوف المقاومين كعادته في التصدّي لقوات الاحتلال التي داهمت المخيم، وبعد ساعات من الاشتباك في واجد من أعنف الاجتياحات وأوسعها، باغتَتْه طلقة قنّاص، وقضى إلى جانب الشهيد عبد الله أبو تين. أمام جثمانه، وقفت والدته، وقالت بعد أن باركت لابنها شهادته التي تمنّاها: «كان ابني يردّد دوماً، لا أريد أن أموت هكذا، كان يرى الموت العادي مخجلاً، كان يتمنّى له يموت شهيداً، ولأنه تمنّى ذلك، أنا سعيدة لأجله وقد استشهد مع أصحابه، إخوته الذين تمنّى الموت إلى جانبهم».

محمد الدخيل... مَن أطاع حسّه وفاز

لم تكن ثمّة فرصة لنهاية أخرى. كان يجب التنظيم والاستقطاب، واستطاع نقل الحالة من الفردية إلى التنظيم. يقول أحد رفاقه في الكتيبة، في حديثه إلى «الأخبار»، إن «شخصية ابن الـ26 عاماً كانت تُجمع ما بين إقدام الشباب في المواجهات، حيث يتقدّم الصفوف، وديناميكية القادة»، مضيفاً: «بعد استشهاد العموري، حرث أبو الأيمن الأرض، واستطاع تأمين خطوط الدعم والتمويل، وبدأ في بناء وتشكيل الكتيبة، مستأنساً بتجارب رفاقنا السابقين، محاذراً الوقوع في ذات الأخطاء، كان يطمح إلى نقل الكتيبة المحصورة في حدود المخيم، إلى ظاهرة تمتدّ إلى كل مناطق الضفة الغربية المحتلّة».

انخرط الرجل مبكراً في حياة المطاردة. اعتُقل في المرّة الأولى في سنّ الـ16 عاماً. وعقب خروجه من السجن، بدأت جولاته الشاقّة التي خاض خلالها عشرات الاشتباكات، وأصيب فيها مرات عدّة. تخمل شخصية «أبو الأيمن» الذي ابتُلي بفقد والده بعد يوم واحد من خروجه من سجون الاحتلال إثر اعتقال دام عامَين، سرّاً أكسبه قبولاً ومحبّة لدى الجميع. يقول ابن عمّه، شافع السعدي، في حديثه إلى «الأخبار»: «أكثر ما يميّزه، أنه مرح وصاحب دعابة، يحبّ الكبارُ والصغار مجالسته، ينتقل بمَن يرافقهم من أجواء الكآبة إلى السعادة والتعالي على الهموم». علاوة على ذلك، عُرف عنه النفس الوحدوي

الذي تجاوز به التقسيمات الحزبية، وكثيراً ما ظهر في مقاطع مصوَّرة يهتف باسم محمد الضيف وإبراهيم النابلسي وقادة «عرين الأسود».

في أحد لقاءاته المصوَّرة التي كان يتحدّث فيها عن رفيقه جميل العموري، قال السعدي: «أمنية جميل ووصيّته أن لا نكون حالة عابرة مؤقّتة، أن نؤسّس بنية يستمرّ أثرها وفعلها من دون أن يستطيع الاحتلال اجتثاثها».

قضى «أبو الأيمن» بعد أن خاض اشتباكاً طويلاً مع القوات الإسرائيلية الخاصة في مخيم جنين برفقة صديقه نعيم الزبيدي مطلع شهر كانون الأول الجاري. وعقب استشهاده، بدا واضحاً أن حدود الكتيبة التي نَذَر حياته في سبيل تطويرها وتوسعتها، امتدّت إلى خارج المخيم، في قباطية وعرابة وجبع، وأضحت هاجساً حقيقياً تقدّر قوات الاحتلال عديدها بـ150 مقاتلاً.

محمد حرز الله... «عزماتك ما انسينا»

في مساء الثالث والعشرين من تشرين الثاني الماضي، أغلق «أبو حمدي المجروح» عينيه إلى الأبد، بعد أربعة أشهر من إصابته خلال التصدّي لقوات الاحتلال، التي هاجمت منزل رفيقَيه عبود صبح ومحمد العزيزي في البلدة القديمة في نابلس، قضى تلك المدّة، وهو يسكن عيون ملايين الفلسطينيين، في الضفة الغربية وقطاع غزة ومخيمات الشتات. واكب الآلاف حالته الصحّية، في الشوارع والمقاهي وطابور الصباح في المدارس. حفظ الجميع النشيد الثوري الذي خلد اسمه: «يا أبو حمدي المجروح... عزماتك ما انسينا». هو محمد أحمد حرز الله، الخليط العجائبي من الشهامة والرجولة والكتمان و«البلادة اللذيذة» أيضاً. تقول شقيقته، الزميلة الصحافية رشا حرز الله، في حديثها إلى «الأخبار»: «يَحضر أبو حمدي في التفاصيل الصغيرة. على رغم أنه هادئ جدّاً وكتوم للغاية، وكثير الغياب عن المنزل، فإن مشاكساته لا تُنسى. عندما كنتُ أزور عائلتي في البلدة القديمة يوم السبت، أدخل الحيّ وألحه على باب صديقه الحلاق، أشير إليه، فيأتي ليحمل عني الشنطة الثقيلة، يمدّ يده مسلّماً عليّ برسمية مبالغ بها، كالغرباء، يحافظ على مسافة في مشيته معي، لأن تقبيلي له أمام الحيّ يثير عصبيّته، يمشي ببلادته المعتادة وهو يتمتم: "بتاشريلي مصلحة حتى أحمل عنك الشنطة، مهو أنا عتال"».

أربعة أشهر قضاها ابن الـ30 ربيعاً في رحلة العلاج. أُجريت له فيها نحو اثنتَي عشرة عملية جراحية، وواكبت خلالها رشا أخباره مع مُتابعيها عبر «فايسبوك». أحبّه أهل البلدة القديمة التي أحبّها هو في المقابل إلى الحدّ الذي كان يرفض الخروج منها حتى للعمل. تقول حرز الله: «في إحدى الفترات، كان يبحث أبو حمدي عن عمل، طلبتُ منه أن يبحث في أيّ مكان خارج البلدة القديمة، فردّ بالقول: "لك أنا من الحارة ما بطلع مش من البلدة القديمة، وواصل بحثه إلى أن وجد عملاً بجانب البيت». تستذكر شقيقته طفولته المرحة المشاغبة: «ذات مرّة، أخذناه بيدنا إلى المدرسة، ثمّ كرّر عادته بالهرب متوجّهاً إلى حيث الاشتباكات مع الجيش بالحجارة، وما إن وصلنا إلى البيت حتى شاهدناه في البثّ التلفزيوني المباشر وهو يحمل إطار كوشوك يتجاوز بحجمه جسمه النحيل، ويلقيه على جيب إسرائيلي».

خلال مرضه، انتشرت عدّة مقاطع مصوَّرة لشقيقه نضال المصاب بـ«متلازمة داون»، وهو يرافق أبو حمدي في المستشفى الاستشاري في رام الله. تصف رشا علاقته بأخيه بالقول: «كان يحبّه كثيراً، لكن أبو حمدي لا يعبّر عن مشاعره بشكل تقليدي، كان يكثر المزاح معه، كانا مثل "ناقر ونقير"، لكن نضال كان يشعر بقدْر الحب الذي تكنّه مشاعيلات أخيه». كشفت إصابة «صاحب الفزعة والعزمات»، ثمّ استشهاده، عن هامش من همومه المخبوءة خلْف ستار صمته وكتمانه. هو مقاوم مشتبك، جريء وبطل، يقول أحد رفاقه في «عرين الأسود»: «تفاجأنا أن عائلته لا تمتلك أيّ إحاطة حول حياته الجهادية، وتفاجأنا أكثر حينما فاجأتهم مشاهد اشتباكاته البطولية في البلدة القديمة».

رحل أبو حمدي، رفْقه عشرات الآلاف، حملوه على الأكتاف وطافوا بموكبه مدن الضفة الغربية، من المستشفى الاستشاري في رام الله، ثم إلى بيرزيت، ثمّ إلى حاجز حوارة. وفي غزة، بكتْه الآلاف من العيون، التي كانت تأمل أن تنتهي رحلة العلاج بالشفاء.

محمد صوف... وجثث فكنتُ اعتذار الزمان إليّ

بالقدْر الذي تركتْه عمليته البطولية من بهجة، كانت المفاجأة التي عاشتها عائلة الشهيد محمد صوف. في مستوطنة «آرئيل»، في منتصف شهر تشرين الثاني الماضي، نفّذ ابن بلدة حارس انتقاماً طال التخطيطُ له. صاحب الـ18 ربيعاً صفّى حساباً شخصياً، وعامّاً. أمّا الأول، فلِصالح والده الذي توفّي قبل ثلاث سنوات، جرّاء حقْنه بدم فاسد عقب إصابته بمرض التهاب الكبد الوبائي، وهو في داخل سجون الاحتلال التي زُجّ فيها بمطلع الانتفاضة الثانية عام 2000، وأورثتْه أمراضاً عديدة آخرها السرطان.

وأمّا الثاني، فلفلسطين عامّة، وأبناء قريته سلفيت خاصة، التي كانت جرافات الاحتلال قد اقتلعت قبل أيام من انتقامه، 2000 شجرة زيتون منها، وقَتلت ابنة حيّه الطفلة فلّة المسالمة.

«رياضي وهادئ ومتّزن، دمث الخلق وعزيز النفس، أنيق الطلّة وحَسن المظهر»؛ هكذا وصفه عمه مصطفى في حديثه إلى «الأخبار». والمُفاجئ في عمليته، هو أنه لم يُظهر طوال حياته أيّ اهتمام بالسياسة، إذ انشغل عقب وفاة والده برعاية عائلته، حيث ترك الدراسة بعد أن أتمّ الصف العاشر، وبدأ العمل في مستوطنة «آرئيل» المحاذية لقريته، للإنفاق على أخَويه وأخواته الثلاث ووالدته. يواصل عمّه حديثه: «كنتُ أقتطع من راتبه الشهري الذي شيكل لأبدأ البناء، كنّا نخطّط لأن نزوّجه في سن العشرين، كي نُدخل الفرح على أسرته».

بدأ «المقاوم اليتيم» عمليّته التي استبقها بتدريب رياضي طيلة عام كامل، نحو الساعة التاسعة والنصف صباح الثلاثاء، 2022/11/15، بطعن مستوطن على مدخل المستوطنة الصناعية، ثمّ انتقل إلى محطّة محروقات قريبة وطعن فيها مستوطنَين آخرين، ثمّ استولى على مركبة وقادها ليدهس مستوطناً رابعاً، قبل أن يطلق جنود الاحتلال ومستوطنون كانوا في المكان النار عليه، ويسقط على الأرض مضرَّجاً بدمائه ويرتقي شهيداً. الانتقام الذي وثّقت كاميرات المراقبة تفاصيله كافة، وأسفر عن مقتل ثلاثة

جنود وإصابة آخرين، بدا صاحبه «الأنيق» وكأنّه قد استطاع أن يحرّر أرضه ويقيم عليها دولة كاملة السيادة، لـ20 دقيقة فقط.

صدقْتَ يا وديع... لم يُكسر ظَهر المدينة بَعدك

لم يكن سهلاً على أهالي نابلس أن يتقبّلوا فكرة رحيل وديع الحَوح. خلال الأشهر الأخيرة، أضحى ابن الـ31 ربيعاً أسطورة في الوعي الجمعي لسكّان البلدة القديمة تحديداً. في ليلة استشهاده 2022/10/25، حَمله الآلاف من مُحبّيه على الأكتاف، نظروا في عيونه المسبّلة وقد هدأت أخيراً، وهتفوا بحرقة: «من المبكر كثيراً أن تموت يا وديع». ذهبوا به إلى المستشفى العربي في نابلس، آملين أن يكون نبضه قد عاد. وأمام إصرار الجماهير المتعطّشة لبقاء «الملهم»، اضطرّ الأطبّاء لإدخاله مجدّداً إلى غرفة العناية المكثّفة، متظاهرين بأنهم يحاولون إنعاشه. خلْف الباب، هتفت حناجر الآلاف: «يا رب». لكن أبو صبيح كان قد استشهد، ليتوزّع نبضه في أفئدة الآلاف من مُحبّيه.

«انتهى الكلام، بدأ الفعل باسم الله»؛ بهذه العبارة كان يفتتح «بطل حارة الياسمينة» كلّ موجة فعلٍ مقاوم. البَنّاء وفَنيّ الديكور، تَرك المجال الذي أبدع فيه، بعد أن أتمّ بناء بيت أشبه بقصر أموي نجا مصادفة من تعرية العصور وتوالُد الحضارات. سيغدو البيت

الذي كان أُعدّ لمشروع الزواج، والذي يتوسّط منطقة حوش العطعوط في البلدة السمّاة «دمشق الصغرى» لشديد ما تشبه العاصمة السورية العريقة، «بيت العمر» بعد اتّخاذه من قِبَل «عرين الأسود» مقرّاً رسمياً لإدارة العمليات، وكتابة البيانات، وتصنيع العبوات، وإحاطته بعشرات الأفخاخ من العبوات والكمائن، في انتظار لحظة لا شكّ قادمة.

في «الياسمينة» حيث ولد رفيقاه عبود صبح ومحمد العزيزي، ولد الحَوح وتربى، وحيداً من الذكور بين شقيقاته الثلاث. ذاق مرارة الفقد واليتم مبكراً، فرحلت والدته وهو ابن 9 سنوات إثر نوبة صحّية مفاجئة. أكمل دراسته حتى الصفّ العاشر، ثمّ ترك الدراسة ليتحمّل مشقة العمل. في مقتبل العمر، تجرّع مرارة الاعتقال (2011 و 2018)، ثمّ المطاردة والتهديد الدائم بالتصفية. إلى جانب الاستعداد الهائل للتضحية بالمال والنفس، حملت شخصية «أبو صبيح» قدْراً عالياً من الإلهام والتأثير، فهو «محبّ، وصادق في مشاعره، ومخلص حتى الموت لأصدقائه»، يقول والده. أمّا في المقاومة، فقد التقط الرجل مع رفيقه العزيزي، مستوى التعقيد المجتمعي والحزبي الذي يَحكم مدينة نابلس، فكان تشكيل حالة «عرين الأسود» الجامعة لكلّ ألوان الطيف الفصائلي، عبوراً من مأزق الحرج الذي تولّده تلك التعقيدات. كذلك، أجاد «البطل»، على نحو شديد الفعالية صياغة خطاب إعلامي جديد، فهو من دبّج النسق الإعلامي العاطفي الأخّاذ لبيانات «العرين». رحل وديع «مخلصاً لله»، ووفيّاً لعهده مع رفيقه تامر الكيلاني بأن «نستشهد معاً» بفارق يومَين اثنين فقط. رحل ولا يزال صدى كلماته يتردّد في أزقّة البلدة: «المهمّ أن نترك أثراً... ثمّ لِنُقتل بَعدها... لن يُكسر ظَهر المدينة بَعدي».

عبد الله أبو التين... مَن البس الغرابة ثوب الممكن

كان صادماً للأطبّاء في «مستشفى الشهيد خليل سليما» الحكومي في مدينة جنين، أن يكتشفوا بعد أن أطاعوا اللثام عن وجه مقاوم غارق بدمائه، أنه هو نفسه زميلهم الدكتور عبد الله الأحمد أبو التين. في قسم الاستقبال، خاض الطاقم الطبّي ملحمة استمرّت ثلاث ساعات لإنقاذ حياته، انتهت برحيله الصادم لكلّ مَن عرفه. في يوم الجمعة 2022/10/14، وفي خلال اجتياح جيش الاحتلال لمخيم جنين، همّ بالخروج على غير عادته في ذلك اليوم، اعترضه طفله زين سائلاً: «على وين يا بابا»، فأجابه بما يشبه المزاح: «رايح أطخ على الجيش حبيبي». غادر بيته مسَلماً مبتسماً، قبل أن يعود إليه محمولاً على الأكتاف.

الطبيب المشتبك كان قد عمل لسنوات طويلة في المهنة التي أخلص في حُبّها، إذ أضحت طريقه إلى قلوب مئات الفقراء الذين كان يعالجهم بالمجّان خارج ساعات دوامه الرسمي. عقب ذلك، شغل منصب مدير وحدة التراخيص في وزارة الصحة. يصفه زميله الدكتور نجي نزال في حديث صحافي بالقول: «كان إنساناً بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، متواضعاً، لا تغيب الابتسامة عن وجهه»، مضيفاً: «كان كتوماً جدّاً، وما قُدرته على إخفاء كوْنه مقاوماً ميدانياً ومؤسِّساً لجناح عسكري في جنين إلّا خير دليل على هذا، فرغم علاقتنا المتينة لم نلحظ أبداً أن لديه هذا التوجّه».

في عالَمَين موازيَين، عاش «المسؤول الكبير في وزارة الصحة». يذهب إلى عمله بسيّارته الفارهة وبذلته الأنيقة، وفي المساء، يعود ليجالس أمّه وعائلته وطفليه، ثمّ يخرج متخفّياً لينخرط في عمله المقاوم. «يجيد الطبيب المقاوم استخدام السلاح على نحو مبدع»، يقول أبو محمد، وهو أحد رفاقه في «كتائب شهداء الأقصى»، مضيفاً في حديثه إلى «الأخبار»: «عاش حكيم الكتائب حياة مترفة، فهو يمتلك معرض سيّارات في جنين، ومقتدر مادياً، وقد بذل وقته وأمواله في بناء خلايا الكتائب، وأنفق عليها لشراء الأسلحة (...) يمتلك حسّاً أمنياً عالياً، خلال سنوات من عمله في بناء وتأسيس الكتائب، لم يتجاوز عدد مَن يعرفون بدوره أصابع اليد العشرة».

قضى الطبيب المشتبك، كاشفاً برحيله تفاصيل غابت طوال سنيّ حياته الـ43، وجامعاً بين «البالطو» الطبّي الأبيض وسمّاعة علاج المرضى وبين الزيّ العسكري والبندقية، في تمازُج استثنائي لرجل البسَ الغرابة ثوب الممكن، والاستثناء طابع العاديّة.

أنا القويّ، وموتي لا أكرّره

بيروت حمود

ليست ثُقة إيقونة. ثُقة امّ، امّ فحسب، تعضّ على الجراح المُثخنة التي يبدو ضحالاً التئامها. امٌّ لَفّت منذ زمن جسدها بالسواد، عندما لم يَعُد محبوبها إلى البيت، في ذلك المساء البارد والقاسي... المساء الذي سرعان ما استحال زمناً طويلاً يمتدّ إلى ما لا نهاية، مِثل سهم خرق مساراً موازياً لعالم يتابع تدفّقه بوقْع متواتر رهيب. امّهات الشهداء، هُنّ القدّيسات، الجميلات الملائكيات. لا يزلْن يبكين في الليالي المقرورة، مُناديات: «يا ولدي... يمّا حبيبي وينك؟»، ولكن لا مَن يجيب ليقول: «أنا هُنا يا حبيبتي!». وحده الصدى الآتي من أعماق تراب فلسطين، يردّد على مسامعهن: «أنتِ امّي قبل امّي يا بلادي، وابني قبل ابي»

تحيّة وقبلة... وليس عندي ما أقول بعد

هنيّة سلامة: وكلّ ما يتمنّى المرء يدركه

«بقولوا عنه أسمر، وين العريس؟ وينو؟». هكذا راحت هنيّة سلامة، أم إيهاب، تُردّد بينما هي تجول في رواق المستشفى، متأبّطةً ما تَبقّى لها من أولادها، وباحثةً عن شهيدها الذي كان قبل ساعات قليلة فقط يذبح العجول، مهيّئاً وليمة عُرسه لليوم التالي. كان سيُزفّ عريساً، بعدما كلّت الأم وهي تبحث في بيوت مخيم جنين عن عروس لقمرها، مستعدّة لأن تحمل الأمانة في عنقها، فتصبح زوجةً لمطارَد من الاحتلال. وجدتْها أخيراً، ولكن «ع الفاضي»، إذ لم تستطع، حتى بهذه الحيلة، إقناع نجلها بأن يظلّ هنا، فحوّلت طموحها إلى أن تَشبع منه فقط، لكن لعلّها اقتنعت في النهاية بأن هذا الأمر مستحيل أيضاً.

في يوم تشييعه، انهارت هنيّة، فالموت وقع مدويّاً على قلبها. كانت تنتظره أن يدخل من باب «بيت الدراويش»، الباب الذي يبدو وكأنه برزخ ما بين عالَمين، والذي أوى فاروق خلْفه المساكين والأيتام، والشهداء قبل أن يَلقوا ربّهم. لطالما تمنّت أن تَراه قادماً عَبره، وهو يلبس البزّة التي كوتْها، وينتعل الحذاء الذي لَمعته. ليالٍ ونهاراتٌ قضتْها وهي تُحضّر مع نساء المخيم أكياس الحنّاء، وتوزّع الحلويات والمُلبّس في صُرر صغيرة، وتشرف على ربطها وتنسيقها داخل السلال وبين الورود الموزّعة بإتقان. «كنت سأسجد حمداً لله عندما أراه عريساً، قلت له ذلك، ولكنه كان في عالمه الآخر. قال لي ستسجدين حمداً لله عندما ترينني شهيداً. اليهود فكروا إنهن راح يكسرونا، بس هني أعطوا فاروق اللّي كان يتمناه، وهو انزفّ شهيد بيوم عرسه، وكل الذبائح عملناها وليمه عن روحه».

تتحدّث سلامة عن نجلها إلى «الأخبار»، بينما هي في السيارة إلى جانب زوجها، يشقّان طريقهما من جنين إلى نابلس لزيارة والدة الشهيد تامر الكيلاني. نسألها: «من أين أتيتِ بالقوّة وأنت تسألين وينو العريس؟ كنتِ تعرفين أن نجلك استشهد، ولكنك بقيت قوية!». لم تفكّر مرّتين، أجابت سريعاً: «عشان فاروق! منحني الله القوة حتى لا أنكسر، لأن ابني عريس، وليس أحلى من الشهادة عرساً». وتتابع: «أنا حنونة جداً ع أولادي، وفاروق خاصة قريد العش (الابن الأصغر)، كان يوقظني عند صلاة الفجر، وكنّا نصوم معاً. ابني كان مؤمناً، ويحبّه الجميع. لا تتمنّى الأم أن تفقد أولادها، ولكنّني ربّيتهم منذ الصغر على أن يكونوا أقوياء، وألّا يتنازلوا عن حقّهم. ذات يوم، كان يرشق الحجارة على جنود الجيش الإسرائيلي على حاجز الجلمة، كان طفلاً عمره 15 سنة، ضَربه الجندي كفّ، ما تْحمّل، رجع وبصق بوجهه. كان عمر فاروق تسع سنوات عندما اجتاح اليهود مخيم جنين، لقد كبر أولادي وهم يعايشون الظلم والجرائم بحق شعبنا». تُنقل الهاتف إلى والده الذي أبلغها باستشهاد فاروق قائلاً يومها: «لَين بتنظفي البيت؟ لفاروق عشان يعيش فيه مع مرته؟ ابنك مات. فاروق استشهد يا هنية». يقلب راضٍ يردّ الأب: «كيف لإنسان أن يصمت أمام هول المجازر والفظاعات؟ الوطن بده، وكلّ الغالي برخص قدام الوطن يا عمي».

يعيش الشهداء في عالمهم الخاص، المتداخل مع عالمنا. صحيح أنهم يشاركوننا مساحات الحزن والآلام والضعف، وفي المقابل هوامش القوة والرفض لتقبّل الذلّ والهوان، ولكن لعلّ لهم عيناً ثالثة ترى أبعد ممّا نرى. إنهم يتركون هذا البقاء الفاني ليذهبوا إلى الأبد. تقول هنيّة: «بعد ما استشهد وديع الحوح، جابلي فاروق مسبحة وديع، وقالي خليها معك، فسألته لماذا أفعل ذلك؟ قال خليها معك فقط. لم أكن أعرف الكثير عن عمل ابني في المقاومة، ولكن قلبي أنبأني بأنه سيستشهد. كان ذلك قاسياً، فقد استشهد قبل يوم زفافه»، وتتابع: «بعد ما استشهد رحت على نابلس، أخذني رفاقه في جوله بحارة الياسمينة، فرجوني وين اشتيك وين قاتل معاهم». تحاول الأم حبس دموعٍ تسللت إلى عينَيها، ثمّ تعود لتبتسم راضيةً، وهي تقول إن «لي أمنية واحدة. أن يزورني في المنام وأن يقول لي لقد نلتُها. لقد نلتُ الشهادة يا أمي».

فتحية الكيلاني... الله يحنّ عليك يا أمي

أيّ جمل قد يناظر ما تَرفعه، وحدها، أمّ عشرينية لرضيعَين - يامن ووتين - استشهد أبوهما للتوّ؟ هذه هي حال شيماء، زوجة الشهيد تامر الكيلاني. مرّ شهر وأسبوع على ذلك الصوت الدوّي، عندما ركن عميل للاحتلال دراجةً ناريّة في زقاقٍ في البلدة القديمة في نابلس، منتظِراً وصول الكيلاني لتفجيرها. حدث هذا بعد خمس دقائق فقط من انتهاء الاتصال الأخير بين الشهيد وزوجته. لا تزال هذه الأخيرة في صدمة، غير مصدِّقة أنه رحل بهذه السرعة. تقول لـ«الأخبار»: «أحضر (تامر) لي هاتفاً، وأمرني ألّا أعطي الرقم لأحد. كُنّا نتواصل من خلاله؛ إذ كان مُطارَداً منذ 46 يوماً. في اتّصاله الأخير قال لي لا تخافي لقد وجدتُ مكاناً آمناً، ولكنهم كانوا ينتظرونه، لقد وضعوا له عبوة وفجّروا جسده لأنهم لم يتمكّنوا من قتله خلال الاشتباكات، فقد كان قنّاصاً ولم يقووا عليه». وهو ما تؤكّده أيضاً والدة الشهيد بقولها: «طول عمره كان مقبلاً، ولا مرّة تامر كان مدبراً... رفقاته راح يأخذوا بثاره». لم تتماسك أم تامر في يوم الفاجعة، لكنها بقيت هادئة، تبكي بصمت متوسّلة إلى الله أن «يرضى عن ابنها، الله يحنّ عليك يا أمي، ابني عندك يا ألله».

في البيت الذي تركه الكيلاني لزوجته، علّقت شيماء مئات الصور. يتنقل الطفل يامن بينها، مشيراً بإصبعه الصغير إلى الوجه الذي ألِفه، منادياً «بابا... بابا». أمّا هي فتنقل شاشة الهاتف إلى غرفتهما، مشيرةً نحو السرير: «هذا محلّه. هون كان ينام. لقد بات فارغاً». ثمّ تدير الشاشة إلى زاوية أخرى: «هذا عطره. كلّما رغبتُ في شمّه أرشّ منه على الصغير، أحضنه وأقبله، أمّا ثيابه، فلم أغسلها، لا تزال رائحته تعبق فيها». في قصة تامر، لم تكن الأم هي منبع القوّة الهائلة فحسب، بل الزوجة أيضاً، تلك التي وصلت إلى المستشفى، ودخلت لترى زوجها الشهيد. تصف اللحظة بالقول: «لا أعرف من أين أتتني القوة لأزغرد فوق جثمانه المسجّى! لا أعرف كيف تمكّنتُ من النظر إلى جسمه المُفخّر. كان الدم في كلّ مكان. أمّا وجهه فكان جميلاً مثل البدر. بقعة دماء واحدة كانت على طرف خدّه، وكأنها حنّاء. وضعت وجنتي على شفتَيه، كان فمه لا يزال دافئاً».

سنتان وثمانية أشهر هي عمر زواجهما، ولكن ما بينهما هو الأبد. ارتبطت شيماء بتامر لمّا كان لا يزال أسيراً. تزوّجا، ورُزقا طفلين. كانت لهما أحلام كثيرة وطويلة: «كنتُ فتاة ذكية ومتميّزة، وعلاماتي المدرسية عالية، غير أن والدي وإخوتي لم يسمحوا لي بإتمام دراستي، لقد بقي ذلك حسرة في قلبي، وعدني تامر بأنه سيعلّمني، وقال لي أيضاً إنه عندما أُنجب وتين، وأرتاح بعد مضيّ الوقت، سيعلّمني كذلك قيادة السيارة، ويشتري لي واحدة. كان يطلب مني دائماً أن أضحك من قلبي، إنه لا يعرف أن هذه الضحكة لا تَخرج إلّا بسببه وفي حضْرته»، تقول شيماء. وتضيف: «لقد قال لي إنني ضَحيتُ بالكثير من أجله، فقد ارتبطتُ به مع أنه اختار هذا الطريق، الطريق الذي فيه فراق للأحبّة، وللدنيا الفانية، والكثير من التضحية والحزن. آه كم كانت لنا من الأحلام، ولكنه خُطف بسرعة ولم نتمكّن من فعل شيء، كان الوقت عدوّنا أيضاً». تتابع مستذكِرةً: «ذات يوم كان عيد ميلاده، دخلنا إلى مدينة الناصرة في الجليل الأسفل، من طريق التهريب. احتفلنا هناك في مطعم وكنّا سعداء... سعداء جداً. كان يحبّ مفاجآتي له، وأنا كذلك. منذ وقت لم تبلِ شيماء، لكن الحمل حتى يحضن التراب جسد صغيرها النحيل... شهيدها الذي صار بطلاً بطول البلاد وعرضها.

وفاء التميمي... كم صعب أن لا تجهش أمّ شهيد

ليست وفاء التميمي امرأة معهودة. إنها مِثل نيزك يتساقط من السماء مرّة كلّ ألف عام، تاركاً أثره البليغ في قلب الأرض. هي التي «لم تجهش بعد/ وكم صعب أن لا تجهش أمّ شهيد» (مظفر النواب). لم يسبق، حتى في الحالة الفلسطينية نفسها، أن ظهرت أمّ شهيد بالثبات الانفعالي الذي ظهرت به والدة عدي. صحيح أن أمّهات فلسطينيات كثيرات وقفْن فوق جثامين أولادهن، وزغردْن مبتسمات، عاضّات على الجراح. وصحيح أن المعاجز النسائية الفلسطينية ليست معدودة، وفي مقدّمتها أم الشهيد محمد فرحات (خنساء فلسطين)، التي أرسلتْه بنفسها إلى الشهادة، ولم تَهنأ حتى تلقّت نبأ قضائه نحبه، فخرجت إلى باحة الدار مكبّرة مهلّلة. غير أن أم عديّ شكّلت حالة متفرّدة وربّما عصيّة على الفهم. بُعيد تنفيذ عديّ عمليته على حاجز مخيم شعفاط، اعتقلت قوات الاحتلال أمّه وفاء، وزوجها يوسف، وابنَيها. في ذلك اليوم، كانت في «صندوق المرضى»، تحاول استحصال كتاب دخول إلى المستشفى لتلقّي العلاج بعدما ظلّت تعاني لشهور. تفيد سائليها بما تَقدّم لتوضح أن حالتها الصحّية لم تكن أصلاً تعينها على تَحمّل الاعتقال والتعذيب: «لا داعي لأتحدّث عمّا فعلوه هناك (في المعتقل)، ولكن يشهد ربّي بأن دمعة وحدة ما نزّلت قدامهم (أمام المحقّقين الإسرائيليين). في قلبي آه أكيد بحزن عليه وبشتاقله، أنا مش بس كنت أمّه، أنا رفيقته وصديقته هو وإخوته... بس هو عند ربّنا وأنا وكّلته لله، وقلبي وربّي راضيين عليه». قالت ذلك في إحدى المقابلات معها خلال بيت العزاء الذي أقيم لنجلها الشهيد في منزل جدّه في بلدة سلوان في القدس المحتلة.

تتحدّث التميمي بثبات يُعجز الوصف، فيما لا تُفارق الابتسامة وجهها. تقول: «عدي بطل، عدي أسد، وعدني يوخذني عمرة، والحمد لله العمرة وصلت». هنا، تَصغر عيناها، ويبدو وجهها ملائكياً وكأنه من عالم آخر، فيه كلّ شيء نقي وواضح ومتّسق. قبل أيام، هدمت جرافات العدو مصدر رزق العائلة الوحيد، أي فرن الخبز، فيما يَنتظر البيت المصير نفسه. لكن قلب الأم «في مكان آخر»؛ إذ إن قطعة منها جُمّدت في درجة حرارة 40 تحت الصفر، إلى جانب جثامين الشهداء المحتجَزة في ثلاجات الاحتلال، وهي لن ترتاح

هدى جرار... أجمل الأمّهات

«كان رأسي معلّقاً بين الأرض والسماء»، هكذا وصفت هدى جرار، والدة الشهيد إبراهيم النابلسي، حالها في يوم استشهاده. لعلّه كان يبتسم لها من هناك، من فوق، مذكّراً إيّاها بألّا تَبكيه. هكذا، دبّت القوة في ساعدَيها اللذين حملا نجلها رضيعاً ذات يوم، ويديها اللتين داعبتا وجنتَيه ومرّتا على شفتَيه وهي تعلّمه كيف يناغي. في ذلك اليوم، تمكّنت هدى من حمْل نعش ولدها، والسير به ناظرةً إلى السماء، وكأنها تهدي بنجمة تشير إلى درب الأنبياء. كانت ضاحكة، في

> «يوم دفنوا تامر دفنوا روحي معه. إن روحي دُفنت هناك في القبر، ولم يتبقَّ مني سوى هذا الجسد الذي سيحرس طفلَيه الصغيرَين ويربّيهما أحسن تربية كما أوصاني... أنا مؤمنة بأنني سألتقيه في العالم الأبدي، في العالم الذي لا يفنى فيه شيء ولا ينتهي فيه الوقت... ولا حتى الدقائق الخمس!».

ثقيل... ثقيل جدّاً. ترفع يدها إلى حنجرتها، تمسك بشيء ما عالق هناك، ثمّ تُجهش باكية وتقول: «يوم دفنوا تامر دفنوا روحي معه. إن روحي دُفنت هناك في القبر، ولم يتبقَّ مني سوى هذا الجسد الذي سيحرس طفلَيه الصغيرَين ويربّيهما أحسن تربية كما أوصاني... أنا مؤمنة بأنني سألتقيه في العالم الأبدي، في العالم الذي لا يفنى فيه شيء ولا ينتهي فيه الوقت... ولا حتى الدقائق الخمس!».

مشهد كفيل بنفي الكلمات، ثمّ عادت وسارت بين الجموع، مكبّرةً مهلّلةً، وهي تحمل رشّاشه الثقيل بيد واحدة. ظلّت مبتسمة، لا بل ضاحكة.

قبل ذلك، ظهرت على مدخل المستشفى مُخاطِبةً جموع الفلسطينيين، وهي تنقل إليهم وصيّة نجلها بألّا يتركوا البارودة. كانت واثقة من أن إبراهيم إنْ ذهب، ففلسطين، ولّادة الأحرار، ستنجب مئة ألف إبراهيم، كما قالت موقنةً. بعد أيام من مواراة ابنها في الثرى، ظهرت في مقابلة تلفزيونية، بعدما كان جنود الاحتلال قد اعتقلوا نجلها البكر إياد، وفجّروا باب المنزل، وتركوا حفيدتها الرضيعة تبكي وحيدة في إحدى غُرفه مُوصدين عليها الباب. «إياد حبيبي، الله يرضى عليه أخدوه. وهدّدوا زوجته إذا ما سلمتينا الهاتف راح نشلّحك الحجاب. حسبي الله على اليهود». مع هذا، ظلّت قوية، ولم تنكسر، فهي أدركت تماماً أيّ شرف مَنحت لهذه البلاد، هي الأم التي أنجبت ولداً كان مقدّراً له أن يوقظ الجموع من سُباتهم الطويل، ويصحّي الجواد الذي كبا، ويُطلقه في حارة الياسمينة، ليُسمع صهيله في جنين والخليل ورام الله وطول كرم والقدس والجليل والنقب.

لم تنزوِ أم إياد، بل تصدّرت الصفوف حاضّةً الشباب على مُواصلة درب المقاومة، ومتحوّلةً إلى مصدر إلهام لبقيّة أمهات الشهداء. فلا يكاد يمرّ حزن أو فراق أو تشييع إلّا وتَظهر فيه هدى، مبتسمةً مخاطِبةً أمّ الشهيد الجديد بأن «الله اصطفى ابنها، والله لا يصطفي إلّا من يستحق هذا الشرف العظيم الجليل!».

تحقيق

الاستثمارات الصينية في كرة القدم... نجاح اقتصادي وتراجع فنّي

منذ بداية العقد الماضي، قررت الصين أن تطور قطاعها الرياضي بشكل عام، وكرة القدم بشكل خاص لاعتبارات عديدة، منها ما يتعلّق باستراتيجية انتشارها الاقتصادي حول العالم، أما الأمر الثاني فهو منافسة الدول الكبرى مثلها في الرياضة، كما تفعل في السياسة والاقتصاد والعسكر. سياسات مختلفة ميّزت الصين تباعاً في حقل الرعاية الرياضية، والرياضات الفردية وبعض الجماعية، دون أن يُكتب لها النجاح على صعيد الدوري المحلي، ولا حتى المنتخب

حسين فحص

لم تنجح الصين على مستوى كرة القدم (ويب)

تتميز الصين في مجالات رياضية مختلفة مع تألقها تحديداً ضمن الألعاب الأولمبية، وكرة السلة. نجاح لم ينسحب على كرة القدم، إذ يكفي الإشارة إلى عدم مشاركة الصين في بطولة كأس العالم سوى مرة واحدة، كان ذلك عام 2002، عندما خسرت مبارياتها الثلاث دون تسجيل أي هدف.

هنا، أدركت الصين ضرورة تحسين منتخبها الوطني لكرة القدم، ومن خلفه الدوري المحلي لما في ذلك من منافع مختلفة.

أولى الإجراءات تمثلت بتطوير الـ«Chinese Super League» عبر البذخ في استقدام لاعبين ومدربين من مختلف الدوريات الكبرى. الصينيون تملّكوا بعدها العديد من الأندية في أوروبا بهدف توسيع الاستثمارات، توازياً مع انتشار شركات الرعاية. إجراءات لفتت أنظار العالم تجاه الجمهورية الشعبية كسوق ناشئ قادم بقوة. رغم ذلك، لم يكتب لكل المشاريع النجاح، تحديداً تلك المرتبطة بتحسين الدوري المحلي.

أغلب الفرق أفلست مع توالي المواسم إثر تكدّس الديون، في ظل الإنفاق العشوائي من دون ضمان عائدات جيدة. الحكومة الصينية نفسها ساهمت بانفجار الفقاعة من خلال التضييق على العلامات التجارية، إضافة إلى وضع سقف على الرواتب بهدف وقف الهدر المالي «المثير للجدل». ومع تجميد النشاط الكروي على خلفية تفشي فيروس كورونا، وُضع المسمار الأخير في نعش الأندية. انهيار مالي دفّر أغلب الإيرادات عام 2021، وفقاً لتقديرات مجلة «Fortune». لكن، ومع الدور التنظيمي المتشدد الذي اعتمدته السلطات الصينية لدفع المجموعات الكبيرة إلى تقليص حجمها، خاصة بعد جائحة كورونا، انهارت إيفرغراند وانهار نادي غوانزو معها تباعاً.

هكذا، سقط أحد أكبر تنانين الدوري الصيني، ما يؤشر إلى نهاية مشروع لم يُكتب له النجاح المطلوب. المواهب التي حطت رحالها في الصين خلال العقد الأخير، غادرت بأغلبها نظراً إلى تقليص أجورها، أما المنتخب، فقد استمر بظهوره الباهت. يعكس ذلك غيابه عن كأس العالم قطر 2022.

الرعاة حاضرون

ما تبقّى من أوجه الصين الكروية يقتصر بغالبيته على عقود الرعاية. يظهر ذلك بلغة الأرقام خلال «المونديالين» الماضيين.

الجمهورية الشعبية تصدّرت شركات الرعاية في كأس العالم روسيا 2018 بواقع سبعة رعاة. تكاليف إعلانات الرعاة التجاريين ناهزت مليارين وأربعمائة مليون دولار حينها، أنفقت الشركات الصينية منها ثمانمائة وخمسة وثلاثون مليوناً، أي ما يفوق ضعفي إنفاق الشركات الأميركية البالغ أربعمئة مليون دولار.

وفي نسخة مونديال قطر، قدّمت الشركات الصينية إيرادات رعاية أكثر من أي دولة أخرى، بواقع مليار وأربعمائة مليون دولار بمقابل مليار ومئة مليون للشركات الأميركية، وفقاً لشركة التحليلات والاستشارات البريطانية «GlobalData».

> دفعت الشركات الصينية ملياراً وأربعمائة مليون دولار كعقود رعاية في مونديال قطر مقابل مليار ومئة مليون للشركات الأميركية

أنظار العالم تجاه الجمهورية الشعبية كسوق ناشئ قادم بقوة. رغم ذلك، لم يكتب لكل المشاريع النجاح، تحديداً تلك المرتبطة بتحسين الدوري المحلي.

أغلب الفرق أفلست مع توالي المواسم إثر تكدّس الديون، في ظل الإنفاق العشوائي من دون ضمان عائدات جيدة. الحكومة الصينية نفسها ساهمت بانفجار الفقاعة من خلال التضييق على العلامات التجارية، إضافة إلى وضع سقف على الرواتب بهدف وقف الهدر المالي «المثير للجدل». ومع تجميد النشاط الكروي على خلفية تفشي فيروس كورونا، وُضع المسمار الأخير في نعش الأندية. انهيار مالي دفّر أغلب الإيرادات عام 2021، وفقاً لتقديرات مجلة «Fortune». لكن، ومع الدور التنظيمي المتشدد الذي اعتمدته السلطات الصينية لدفع المجموعات الكبيرة إلى تقليص حجمها، خاصة بعد جائحة كورونا، انهارت إيفرغراند وانهار نادي غوانزو معها تباعاً.

هكذا، سقط أحد أكبر تنانين الدوري الصيني، ما يؤشر إلى نهاية مشروع لم يُكتب له النجاح المطلوب. المواهب التي حطت رحالها في الصين خلال العقد الأخير، غادرت بأغلبها نظراً إلى تقليص أجورها، أما المنتخب، فقد استمر بظهوره الباهت. يعكس ذلك غيابه عن كأس العالم قطر 2022.

الرعاة حاضرون

ما تبقّى من أوجه الصين الكروية يقتصر بغالبيته على عقود الرعاية. يظهر ذلك بلغة الأرقام خلال «المونديالين» الماضيين.

الجمهورية الشعبية تصدّرت شركات الرعاية في كأس العالم روسيا 2018 بواقع سبعة رعاة. تكاليف إعلانات الرعاة التجاريين ناهزت مليارين وأربعمائة مليون دولار حينها، أنفقت الشركات الصينية منها ثمانمائة وخمسة وثلاثون مليوناً، أي ما يفوق ضعفي إنفاق الشركات الأميركية البالغ أربعمئة مليون دولار.

وفي نسخة مونديال قطر، قدّمت الشركات الصينية إيرادات رعاية أكثر من أي دولة أخرى، بواقع مليار وأربعمائة مليون دولار بمقابل مليار ومئة مليون للشركات الأميركية، وفقاً لشركة التحليلات والاستشارات البريطانية «GlobalData».

> دفعت الشركات الصينية ملياراً وأربعمائة مليون دولار كعقود رعاية في مونديال قطر مقابل مليار ومئة مليون للشركات الأميركية

أنظار العالم تجاه الجمهورية الشعبية كسوق ناشئ قادم بقوة. رغم ذلك، لم يكتب لكل المشاريع النجاح، تحديداً تلك المرتبطة بتحسين الدوري المحلي.

أغلب الفرق أفلست مع توالي المواسم إثر تكدّس الديون، في ظل الإنفاق العشوائي من دون ضمان عائدات جيدة. الحكومة الصينية نفسها ساهمت بانفجار الفقاعة من خلال التضييق على العلامات التجارية، إضافة إلى وضع سقف على الرواتب بهدف وقف الهدر المالي «المثير للجدل». ومع تجميد النشاط الكروي على خلفية تفشي فيروس كورونا، وُضع المسمار الأخير في نعش الأندية. انهيار مالي دفّر أغلب

رياضة المحركات

الرالي الأصعب ينطلق اليوم

عندما يتعلق الأمر بسباقات التحمّل في رياضة السيارات، لا شيء يمكنه منافسة رالي دكار السنوي الذي تبدأ نسخته الـ45 على شواطئ البحر الأحمر اليوم السبت.

وستكون الأنظار شاخصة إلى التحدي المنتظر بين 31 كانون الأول و15 كانون الثاني 2023، على أن تستمر المنافسات طوال 15 يوماً، بما فيها أربعة أيام في صحراء الربع الخالي. وتبلغ المسافة الإجمالية لرالي دكار 8,549 كلم، منها 4,706 مراحل خاصة.

«كن خائفاً» هو شعار مسار دكار لعام 2023، حسب ما أعلنه المنظّمون عند الكشف عن النسخة الـ45.

لا يبدو أن التحذير قد شكّل رادعاً لأحد: سينطلق أكثر من 800 متسابق من سائقين ومساعدين، في مجموعة من الدراجات النارية والسيارات والكواد والشاحنات والمركبات الخفيفة عندما ينطلق السباق السبت (اليوم).

من بينهم بعض الأسماء المعروفة، بمن فيهم بطل العالم للراليات تسع مرات الفرنسي سيباستيان لوب (البحرين رايد إكستريم) الذي يتطلع إلى المنافسة على اللقب في مشاركته السادسة في دكار.

وقال لوب: «إنها 14 مرحلة، إنها طويلة جداً، سباق تحمّل حقيقي».

وأضاف السائق الفرنسي الذي فاز قبل فترة وجيزة بتحدي الـ«إكستريم إي» وسيكون بحاجة إلى رفع مستواه إلى الحد الأقصى إذا أراد الفوز باللقب للمرة الأولى: «نحن بحاجة إلى إيجاد السرعة المناسبة للوصول إلى النهاية بأقل عدد ممكن من الأخطاء».

> يشارك في السباق أكثر من 800 متسابق من سائقين ومساعدين

وسيكون على لوب الإطاحة بالقطري ناصر العطية (تويوتا) حامل اللقب والفائز أربع مرات، لكنه سيواجه أيضاً أسطورة «دبليو ار سي» آخر هو الإسباني كارلوس ساينس (ميني) بالإضافة إلى نجم دكار العظيم الفرنسي ستيفان بيترهانسل (أودي) الذي فاز بالحدث 14 مرة (ثماني مرات في فئة السيارات وستّ مرات في الدراجات).

على صعيد الدراجات النارية، سيواجه حامل اللقب البريطاني سام سندرلاند (غاس غاس) تحدياً صعباً بمواجهة أمثال الأسترالي دانيال ساندرز (غاس غاس)، التشيلياني بابلو كوينتانيلا (هوندا)، النمسوي ماتياس فالكنر (كي تي إم) والفرنسي أدريان فان بيفرين (هوندا).

وتوقّع الفرنسي يان لو موينر، المدير العام لشركة أموري الرياضية منظّمة الحدث أثناء تقديم المسار «أن تقدّم هذه النسخة تحدياً هائلاً» تحت شعار «التحمل الشديد» ومع «المزيد من الكثبان الرملية في المراحل الخاصة».

NBA

إيقافات بالجملة بعد مشاجرة هايز وفاغنر

أعلنت رابطة دوري كرة السلة للمحترفين إيقاف لاعب ديترويت بيستونز كيليان هايز (الصورة) لثلاث مباريات ولاعب ارتكاز أورلاندو ماجيك موريتس فاغنر لمباراتين، وإيقاف تسعة لاعبين آخرين لمباراة واحدة بعد مشاجرة جماعية خلال مواجهة الفريقين الأخيرة.

وأوقف لاعب بيستونز حميد ديالو لمباراة واحدة مقابل إيقاف ثمانية لاعبين من ماجيك للمدة ذاتها وهم كول أنتوني، آر جاي هامبتون، غاري هاريس، كيفون هاريس، بالإضافة إلى أدميرال شوفيلد والألماني فرانتس فاغنر ومو بامبا ووينديل كارتر جونيور.

وشهدت المباراة التي جمعت الفريقين طرد الثلاثي فاغنر، هايز وديالو إثر إشكال جمعهم أدّى إلى تدخل لاعبين من دكة البدلاء في الربع الثاني من المباراة التي انتهت بفوز بيستونز 121-101.

وكان بيستونز متقدماً بتسع نقاط عندما وقع الإشكال الذي بدأه لاعب ماجيك فاغنر بعدما قام بدفع هايز خارج الملعب بينما كانا يلاحقان الكرة.

وسارع ديالو إلى التدخل ودفع فاغنر من الخلف، ومن ثمّ قام هايز بضرب فاغنر على رأسه من الخلف، ليقع الأخير على دكة بدلاء بيستونز.

ستدخل العقوبة على هايز وديالو حيّز التنفيذ من مباراة بيستونز أمام شيكاغو بولز على ملعب يونايتد سنتر الجمعة.

أما عقوبة إيقاف فاغنر لمباراتين ستبدأ من اللقاء أمام واشنطن ويزاردز في أموای سنتر.

وسيبدأ الإيقاف لمباراة واحدة على لاعبي ماجيك لتركهم مقاعد البدلاء في مباراتيه المقبلتين وذلك لضمان وجود ثمانية لاعبين متوافرين في قائمة ماجيك، بحسب نظام الدوري.

متابعة

الحزن يلفّ البرازيل بعد رحيل الجوهرة السوداء

نزل طوفان من مشجعي رمز الرياضة البرازيلي إلى مستشفى البرت اينشتاين في ساو باولو (أ ف ب)

استفاق العالم على رحيل أسطورة كرة القدم البرازيلي بيليه. لفّ الحزن العالم وتحديداً في البرازيل حيث تحوّلت المستشفى التي يرقد فيها جثمانه إلى مركز استقطاب لعشاق «الجوهرة السوداء».

بمجرّد تلقيهما الخبر، بدأ أنتونيو بيريرا وابنه في الجري لقد توفي بيليه، الرجل الذي يعتبر على نطاق واسع أعظم لاعب كرة قدم في كل العصور، وأرادا التواجد هناك للحداد عليه.

لم يكن بيريرا ولويس إدواردو البالغ من العمر 12 عاماً الوحيدين اللذين تأثرا بالوفاة، فقد نزل طوفان من مشجعي رمز الرياضة البرازيلي إلى مستشفى ألبرت اينشتاين في ساو باولو بعد أن أكدت أسرة بيليه والأطباء وفاته عن عمر يناهز 82 عاماً.

وقال أنتونيو لوكالة فرانس برس «إنه أعظم لاعب كرة قدم في التاريخ»، بعد أن قطع مسافة 1,5 كيلومتر إلى المستشفى، حيث توفي بيليه بعد شهر من دخوله إليه بسبب ما اتضح أنها معركته النهائية مع سرطان القولون.

وأضاف رجل الأعمال البالغ من العمر 46 عاماً: «كنت أتمنى دائماً أن التقط صورة معه يوماً ما».

قال الشاب لويس إدواردو الذي كان يرتدي قميص كرة قدم، إنه حزين لأنه لم تُتح له الفرصة أبداً لرؤية موهبة بيليه الأسطورية. ولكن مثل كل البرازيليين تقريباً، نشأ وهو يسمع عن موهبته.

وأضاف «الاسم الأول الذي سمعته في كرة القدم كان بيليه اعظم لاعب في كل العصور».

كما توافد المشجعون لوضع الزهور خارج ملعب النادي حيث قضى بيليه معظم مسيرته الكروية، سانتوس، حيث أعلنت المدينة الجنوبية الشرقية الحداد سبعة أيام على بطلها.

وسرعان ما جاءت تحية أخرى على الصعيد الوطني حيث أعلنت البرازيل الحداد الوطني لمدة ثلاثة أيام، وتمت إضاءة تمثال المسيح الفادي الشهير في ريو دي جانيرو باللونين الأصفر والأخضر، وملعب ماراكانا الشهير باللون الذهبي تكريماً لـ«الأعظم في كل العصور».

في هذه الأثناء، سافر الصحافيون من جميع أنحاء العالم إلى مدينتي ساو باولو وسانتوس وبلدة بيليه في الجنوب الشرقي، تريس كوراكويس، حيث قام التلفزيون البرازيلي بتقديم تغطية شاملة لوفاته مع شهادات مؤثرة على المستوى الوطني تخلّلها لقطات أرشيفية مبهرة من أيام لعبه.

كان بيليه الملقّب بـ«الملك» من أكثر الرياضيين شهرة، حيث سجل أكثر من 1000 هدف خلال مسيرته الكروية المتألقة وفاز بكأس العالم ثلاث مرات وهو اللاعب الوحيد في التاريخ الذي حقق هذا الإنجاز.

وضع البرازيل على خريطة العالم

على أنها «أرض اللعب الجميل» حيث سارع الرئيسان الغريمان المنتهية ولايته جاير بولسونارو والمرتقب خلافته في الأول من كانون الثاني/ يناير لويز إيناسيو لولا دا سيلفا إلى الإشادة به.

خارج المستشفى في حي مورومبي الراقي، بكى المشجعون ولوّحوا بأعلام سانتوس وعلقوا لافتة كُتب عليها «الملك الأبدي بيليه».

وقال جوزيه كارلوس سوزا سانتوس (43 عاماً) «جئنا لنقول وداعاً ونقدم له تكريماً بسيطاً لما فعله، كما أعتقد أنه ينبغي على الجميع أن يفعلوا ذلك».

وأضاف «يمثل بيليه شغفنا بكرة القدم. كل من أراد أن يلعب كرة القدم كان مصدر إلهام له».

(الأخبار)

استراحة

كلمات متقاطعة 4210

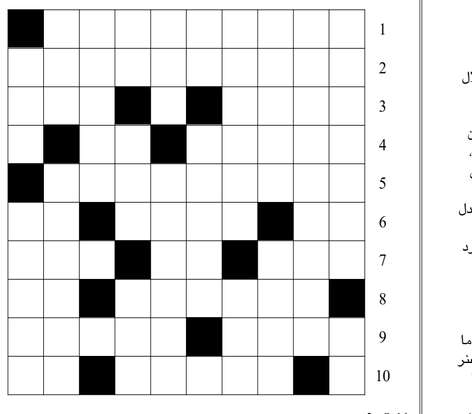

افقيا

1- دولة آسيوية – 2- لقب لضابط انكليزي شجع ثورة العرب على الأتراك – 3- يضرب بالرجل عند بعض الحيوانات – تراب يُجبل بالماء – 4- أشارت اليه – خصب – 5- اديب فرنسي راحل – 6- عملة آسيوية – فريد – بحر – 7- بكى الميت – ربط وشدّ – تعداد معايب الشخص وشتمه – 8- من القياصرة في التاريخ القديم – متشابهان – 9- رقصة أجنبية – عاصمة جزر شتلند البريطانية – 10- بعد خماسي – أصل البناء

عمودياً

1- مهندس سوفياتي راجل اخترع أكثر من خمسين نموذجاً لطائرات حربية وتجارية – غليظ سيء الخُلق – 2- مقاطعة فرنسية – 3- مصراعي الباب بالعامية – رسول الأمم – 4- ماركة سجائر – لعق العسل – 5- يبس الخبز – من أسماء الأسد – 6- جامعة اميركية مشهورة – مؤسس روما الأسطوري – 7- من الأمراض – غزال أبيض – أمر خفي – 8- يناولوا – 9- عسل – دولة أفريقية – 10- مادة تستعمل للتخدير – صدف بحري يستخرج منه صباغ الأرجوان

حلول الشبكة السابقة

افقيا

1- جنيفر لوبيز – 2- ود – كوفنتري – 3- ريق – كي – ريا – 4- جمار – فدافد – 5- روح – سراب – 6- أزوت – يمكنن – 7- نرنج – 8- نص – دلما – دب – 9- طفران – ساري – 10- نعوم لبكي

عمودياً

1- جورج واشنطن – 2- نديم – صفع – 3- قارون – رو – 4- فك – روتردام – 5- روك – نلنل – 6- لفيف – يجم – 7- ون – دسم – أسك – 8- بتراركه – اي – 9- بريفان – در – 10- زياد بن ابيه

sudoku 4210

					5			
		3		4	6	1		
7	9	5			3	4	6	8
				7	9	3	2	
	5		8					
9		7	4				8	
	2		3	9	8		7	
		8	1	5	7	9		

شروط اللعبة

هذه الشبكة مكوّنة من 9 مربعات كبيرة وكل مربع كبير مقسّم إلى 9 خانات صغيرة. من شروط اللعبة وضع الأرقام من 1 إلى 9 ضمن الخانات بحيث لا يتكرر الرقم في كل مربع كبير وفي كل خط أفقي أوعمودي.

حل الشبكة 4209

9	1	6	7	3	4	2	8	5
5	7	3	2	8	1	9	4	6
2	8	4	9	6	5	7	3	1
8	9	2	6	5	7	4	1	3
1	6	7	3	4	9	8	5	2
3	4	5	1	2	8	6	7	9
4	2	1	8	9	3	5	6	7
7	5	9	4	1	6	3	2	8
6	3	8	5	7	2	1	9	4

مشاهير 4210

11	10	9	8	7	6	5	4	3	2	1

أديبة وصحافية لبنانية (1880- 1947) إهتمت بحقوق النساء. أنشأت مجلة «فتاة الشرق» في مصر

6+1+10+2+9+4 = 5+4 = مزمار من قصب ■ 11+3+7 = مقياس بحري ■ 8+1 = للإستفهام

إعداد
نعوم مسعود

حل الشبكة الماضية: تيودور مومسن

وفيات

بخعازي ماديكال غروب القابضة – مستشفى فؤاد خوري وشركاه ش.م.ل

ومركز عبد العزيز الطبي ش.م.ل الإدارة والطاقم الطبي وجميع الموظفين

ينعون إليكم بمزيد من الحزن والأسى فقيدتهم الغالية المأسوف عليها

وفا احمد وفا

لها الرحمة ولكم من بعدها طول البقاء.

إعلانات رسمية

تعلن نقابة الكيميائيين في لبنان عن موعد اجراء انتخابات اعضاء مجلس النقابة نهار الاحد الواقع في ٢٠٢٣/١/٨ من العاشرة صباحا لغاية الرابعة بعد الظهر في مركز والتدريب- غزير .يقفل باب الترشيح في ٢٠٢٣/١/٥ خلال الدوام الرسمي.

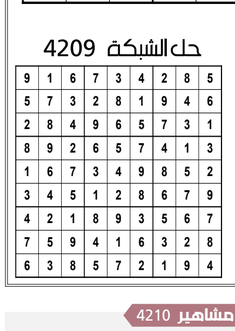

الأخبار
al-akhbar
السبت 31 كانون الأول 2022 العدد 4815

في وداع 2022

سهر العيد على الشاشات
ألعاب وهدايا... وليلى تدوم وتدوم وتدوم

زكية الديراني

لا جديد على الشاشات اللبنانية في ليلة رأس السنة، مقارنة بالسنوات السابقة. إنّها أشبه ببرمجة مستنسخة. لا تزال الأوضاع المتأزّمة في لبنان ترخي بظلالها على أحوال القنوات المحلية. ويبدو أنّ سهرات رأس السنة ليست ضمن أولويات القائمين عليها. ماذا سنشاهد في ليلة استقبال 2023 على المحطات اللبنانية؟ جولة سريعة على برمجة القنوات، تؤكد أنّ السيناريو نفسه سيتكرّر هذا العام أيضاً.

لم تبذل lbci أي جهد ملحوظ في إعداد سهرة الليلة، بل تستعدّ لتكرار سابقتها بكلّ تفاصيلها. تفتتح القناة يومها بنهار صباحي طويل ينطلق قرابة السابعة والنصف صباحاً ويختتم مساءً، يقدّمه وسام حنا ويستقبل فيه اتصالات المواطنين. تحت عنوان «عيّد معنا»، أعلن الممثل اللبناني أخيراً على صفحاته على السوشيل ميديا عن توليه هذه المهمّة، مكرّراً تعاونه مع المحطة التي يديرها بيار الضاهر.

بعد نشرة الأخبار المسائية، تبدأ السهرة الفنية على lbci من تقديم رودولف هلال الذي يستقبل مجموعة مغنين ونجوم من بينهما فارس كرم ونوال الزغبي. وكما في كلّ عام، تتصدّر ليلى عبد اللطيف السهرة كاشفةً عن «تنبّؤاتها». واللافت أنّه رغم الانتقادات التي طالت «العرّافة؛ اللبنانية في الأعوام الماضية مع فشل توقعاتها، إلا أنّ الهواء لا يزال يُفتح أمامها. تتواصل الفقرات الفنية والترفيهية في سهرة قناة lbci، إذ يحاور رودولف هلال الإعلامية وعالمة الفلك ماغي فرح التي تكشف عن توقعاتها للأبراج للعام 2023.

ليست lbci وحدها التي نسخت سهرة العام الماضي، بل ينسحب الأمر على mtv. إذ تفتتح الشاشة المحلية يومها بنهار طويل (من التاسعة صباحاً حتى السادسة والنصف مساءً)، يطل فيه ميشال قزي لتقديم مجموعة من الجوائز المالية. يعود قزي إلى برامج الألعاب بعد غياب، ليحفّز المشاهدين على الاتصال على أرقام ستوضع في أسفل الشاشة، إلى جانب مراسلين، من بينهم إيلي شمالي، سيجولون على بعض المناطق اللبنانية لتوزيع الهدايا.

بالطبع لا تكتمل سهرة mtv المسائية (بعد نشرة الأخبار) إلا بإطلالة ميشال حايك وتوقعاته المحلية والعربية والدولية. مكان الأخير ثابت على قناة ميشال المرّ، وستحاوره رانيا زيادة أشقر، وسط ديكور ضخم وموسيقى تشويقية. وكعادتها، ستحاول القناة إقناع اللبنانيين بتحقّق توقعات حايك السابقة، من خلال تقرير مفصّل. تستكمل mtv سهرتها مع هشام حداد الذي انضم إليها أخيراً قادماً من lbci. يدير مقدّم برنامج «كتير هلقد» هذه المساحة، محاولاً استعادة بعض الأحداث التي حصلت في العام بطريقة ساخرة.

يستقبل رودولف هلال على lbci مجموعة من المغنين من بينهم نوال الزغبي

تطل مايا دياب على قناة mtv

> يطلّ مايك فغالي على «الجديد» وotv
>
> يغيب «تلفزيون لبنان» كلياً عن المشهد

لاحقاً، تعرض شاشة المر سهرة يطل فيها المغنيين جوزيف عطية ومايا دياب، إضافة إلى مفاجآت فنية. على الضفة نفسها، تبدأ قناة otv سهرتها الوداعية صباحاً ببرنامج ألعاب يتولّاه سيرج أسمر. ربح وألعاب وهدايا هي سمات اليوم الطويل. بعد نشرة الأخبار المسائية ليلاً، يطلّ جورج عقل مستضيفاً «العرّاف» مايك فغالي الذي يواظب على الظهور على الشاشة «البرتقالية» منذ سنوات. بعدها، يحين موعد الفقرة الفنية التي صُوِّرت في البترون (قضاء الكورة) من تقديم وجوه عدّة، من بينهم إيلي حوشان وباسكال الشمالي ومي سحاب وغيرهم.

على غرار زميلاتها، ستكون ليلة رأس السنة على «الجديد» عادية يغلب عليها طابع التوقعات والتنبؤات. هذا العام، تفرد الشاشة التي يديرها تحسين خياط مساحة كبيرة لـ «العراف» مايك فغالي الذي تحاوره سنا نصر ضمن حلقة خاصة (س: 18:00). يجلس فغالي على طاولة مستديرة، سارحاً في عالم التوقعات. ومساءً، تطلّ راغدة شلهوب لتستقبل مجموعة من المغنين، أمثال اللبناني هادي خليل والسورية ريم السواس وغيرهما. سهرة يغلب عليها طابع الأغاني الشرقية والحوارات التقليدية. أما «تلفزيون لبنان»، فيغيب كلياً عن المشهد، إذ تبحث إدارة الشاشة المحلية في نقل حفلة فنية تقام في بيروت، مباشرة على الهواء. يتكتّم القائمون على «تلفزيون لبنان» عن هذه الخطوة، إلى حين إتمام الاتفاق بشكل نهائي.

الحفلات ولعانة... بالدولار

«مفولة» هذا هو العنوان العريض للحفلات التي ستقام ليلة رأس السنة في مطاعم بيروت وفنادقها. لا بطاقات متوافرة في تلك الحفلات، واللافت أن سعر تلك البطاقات تبدأ من 200 دولار أميركي!

كما في كل عام، فضّلت غالبية الفنانين اللبنانيين الهجرة إلى الخارج لإحياء الحفلات هناك، بينما قرّر بعضهم الآخر البقاء في بيروت لإستقبال العام الجديد.

الملفت هذا العام هو حلول مجموعة من المغنين المصريين على لبنان لإحياء سهرة رأس السنة من بينهم هاني شاكر وعمر

كمال وحسن شاكوش. فقد أعلن شاكر عن إحيائه سهرتين في 30 و31 كانون الأوّل 2022. الأولى في صيدا (جنوب لبنان) والثانية من فندق «الأطلال بلازا» في غزير (قضاء كسروان).

من جانبه، أعلن عمر كمال عن استقباله عام 2023 في حفلتين في بيروت، بينما يحيي مواطنه حسن شاكوش حفلة في بيروت في 2 كانون الثاني (يناير) المقبل. وبعد غياب أشهر عن الحفلات في لبنان، أحيا كاظم الساهر أمس الجمعة حفلة أقيمت على واجهة بيروت البحرية (البيال).

على الضفة الأخرى، يحيي عدد من المغنّين اللبنانيين حفلة رأس السنة في بيروت. إذ يحيي معين شريف وزياد برجي سهرة في العاصمة. كذلك قرر عاصي الحلاني البقاء في بيروت إلى جانب مواطنه ملحم زين، والأمر نفسه ينسحب على ناجي أسطا وعامر زيان. إضافة إلى ذلك، يستعدّ فارس كرم لإحياء حفلة وداع 2022 في أحد فنادق بيروت، ويشاركه المغني مجد موصللي والممثل عباس جعفر. ويطل مروان خوري ونادر الاتات وغيرهما في حفلة في العاصمة.

في الختام، يتعرّض المغني سعد لمجرد لحملة شرسة بعدما أعلن عن إستقباله العام الجديد في بيروت إلى جانب هيفا وهبي ونادر الأتات. تأتي الحملة ضده مطالبةً بإلغاء السهرة بسبب تهم التحرّش والإغتصاب التي سجن بسببها في فرنسا قبل سنوات.

الأخبار
al-akhbar
صادرة عن شركة أخبار بيروت

رئيس التحرير
ابراهيم الأمين

مدير التحرير المسؤول
وفيق قانصوه

مجلس التحرير
أمل الأندري
محمد وهبة
وليد شرارة
دعاء سويدان
جمال غصن
حسين سمور

المدير الفني
صلاح الموسى

المكاتب
بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد الطابق الثامن
تلفاكس: 01759500 01759597
ص.ب 113/5963

/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/AlakhbarNews

الإعلانات
الوكيل الحصري 01/759500 ads@al-akhbar.com
التوزيع
شركة الأوائل
15ـ 01/ 666314 ـ 03 / 828381
الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

الأخبار
al-akhbar

السبت 31 كانون الأول
العدد 4815 السنة السابعة عشرة
Samedi 31 Décembre 2022 nº 4815 17ème année

كلمات

ملحق
أسبوعي

www.al-akhbar.com

رسالة إلى 2023

واضحٌ أنَّكَ تقدَّمْتَ في السنِّ الآن
إنْ تَتَّكِئْ على «بابا نويل» الطيب؛
فقد وَلَّى زمنُ المُعجزات.
- لكنْ ارفعْ عينيكَ فجأةً
نحوَ نُورِ السَّماءِ، تُدركْ:
أنَّ حياتكَ هِبةٌ خالِصَة

جوزيف برودسكي ــ ترجمة محمد مظلوم

عمل للمصوّر البريطاني هاري بوب

ملف

مبدعون لبنانيون وعرب يوجّهون رسالة إلى 2023

لئلا تموت الأماني رغم ضيق الزمان

«كُنْتُ أمانيُّ الرجال ولم تَزَلْ
متوسّعاتٍ والزمانُ يضيقُ»: يصلح بيت الشريف الرضيّ الذي اختارته الشاعرة اللبنانية هدى فخر الدين في رسالتها للسنة الجديدة أن يكون عنواناً جديداً-قديماً لكل حقبة أو سنة أو مرحلة جديدة نؤرّخ بها الحياتنا العامة في العالم العربي حيث تشتبك الثقافة بالسياسة وتتداخل القضايا الكبرى مع الخبز اليومي. فيضيق الزمان على اوطاننا النازفة من قلبها فلسطين. آخر قضية كولونياليّة في التاريخ يضع فيها الغرب كل آلته العسكرية والاستكبارية وعدّته الثقافية والإعلامية في مواجهة ثلّة من الابطال يواجهون بالحجر العاري ويحفرون الجبل بالإبرة ونفق الهروب من السجن بملعقة الطعام لكي يتّسع الزمان قليلاً. وما زالت اوطاننا الاخرى تقتلنا بطوابير الخبز وجزمة المستبد والحلم المستحيل بساعات معدودة من الكهرباء أو استعادة راتب التقاعد من زبانية المصارف. كما لم تسلم اوطان اخرى من الحروب والتقسيم والوجود العسكري الاجنبي المباشر على أرضها. لكن إذا انطفأت الكلمة، حلّ الصوت الذي لا يفعل هؤلاء الشعراء والروائيون والادباء والمبدعون سوى مقاتلته في ما يكتبونه ويبدعونه كلّ عام، مستعيدين جملة درويش الشهيرة: «نفعل ما يفعل السجناء وما يفعل العاطلون عن العمل. نربّي الامل»: لا بدّ من خيط للامل ومن ضوء في نهاية النفق. لا بد من وردة صعبة في زمان لشوك العربيّ وفي قلب الجغرافيا التي تنزّ دماً وقهراً وخيبات. إنها رسائل من كوكبة من المبدعين لعام جديد يحمّلونه فيها آمالهم وأحلامهم وحتى خيباتهم ننشرها في «كلمات» لتبقى شعلة النار مشتعلة في إبداعاتهم. ولئلا يغادر الشعراء من متردّم: لئلا تموت الأماني رغم ضيق الزمان

جوانا حاجي توما وخليل جريج، «بيروت المعجزة 10» (طباعة على الصنيوم ــ 1998/ 2007)

أن أبقى كما أنا، حيث أنا

حسن داوود *

أن لا تتراجع الأحوال عمّا هي الآن وأن لا تتقدّم إلى الأمام. حتى هذه الأخيرة يلزمها طاقة لم أعد قادراً على بذلها. لقد اعتدت على هذا الذي أنا فيه. بات الرجوع مرّاً مثلما هو مرُّ التقدّم. كما قال ماكبث بعدما تعب وأنهك، ما اتمنّاه إذن للسنة الجديدة هو أن أظلّ كما أنا الآن، حيث أنا الآن. اخترت أن هذا القليل كافٍ لي، وفي أحيان أفكّر أن ما أتيح لي عيشه في ما مضى كان كثيراً، فائضاً عن اللزوم. الكره أيضاً كان فائضاً عن اللزوم. أقصد كره من أوصلوني إلى ما أنا فيه. كنت أستشيط غضباً وأرفع صوتي عالياً قبل أن أخرج من البنك، متمنياً الموت، بل القتل، لمن أخذوا ما هو لي وأخرجوني خالي الوفاض. بتّ الآن كأني قبلت، أو كأني ارتحت للمسافة بيني وبين ما ينبغي أن يغيظني. وكذلك للمسافة بيني وبين تلك المرأة الممدّدة رجليها المتورّمتين، والمنتظرة أن أقف وأعطيها شيئاً. أقصد بالمسافة أن أمرّ ولا أعطيها شيئاً، وأن لا يعاودني الشعور المخجل المربك بأني مررت ولم أعطها شيئاً. لا أمنية لي بمناسبة السنة الجديدة. لن أفكر ماذا عليّ أن أتمنّى لأنّي إن فعلت، أكون اخذت كلمة أو جملة من بطاقة معايدة قديمة. كما لا يناسب أن أقول لسائلي إنّي أتمنى أن يصدُق وعد الوزير بساعات الكهرباء الأربع. سيظلّ سائلي انتي اسخر من سؤاله، إذ ليس هذا ما يُجاب به عند السؤال عن السنة الجديدة. لكنّني، مع ذلك، لا أجدني منتظراً ما هو أكثر من ذلك.

* روائي لبناني

■■■

أيّ أمل

علوية صبح *

أي أمل لي غير أن تمتلئ ملاعق الجياع بما تيسّر من طعام تسدّ به جوعهم وأن لا يجفّ حليب الأمّهات من القهر طالما حليب الأطفال ممنوع ومسروق. أيّ أمل لي غير أن يُحاكم قتلة لبنان من أهل السلطة الفاسدة وسارقوه ونأهبو ثرواته، والا يموت ما تبقّى من مدينتي بيروت التي لا أستطيع أن أتنفّس سوى هوائها وأن يتبقّى لي فيها قلم ودفتر وكرسي وطاولة أجلس أمامها لأكتب أو أقرأ أو أشرد لأتخيّل. وعلى المستوى الشخصي أيضاً، أتمنى بالطبع نجاح روايتي الأخيرة «أفرح يا قلبي» التي استغرقت مني أعواماً كثيرة وكنت راضية عنها قبل أن أصدرها.

* روائي لبناني

■■■

أمنيات قديمة للسنة الجديدة

فوزي يمّين *

أن نعزّي أهالي أصحابنا المتوفّين على الفايسبوك بتعليق «ليرقدْ بسلام» مختصر إلى ثلاثة أحرف R.I.P، أو بصورة يدين مضمومتين دلالة الرحمة، من دون أن ينتابنا شعور بشع بأنّ هذا ربما يكون أكثر راحة لنا.

أن لا نلتقي مصادفة بأصدقائنا أمام ماكينة الصرّاف الآليّ ونسأل عن أحوالهم.

أن يكون لدينا ماء.

أن لا تنقطع الكهرباء.

أن نترك نصفَنا مع أصدقائنا ونسير بنصفنا الآخر إلى حيث تودي بنا الطريق.

أن نفتح الباب صباحاً على أمل، ونغلقه مساءً على أمل، وإنْ بدا أنّه لا امل بينهما.

أن نظلّ نركض حتى لو لم نصل إلى آخر الشهر.

أن نبقى معلّقين في سقف ظنوننا ومجمّدين في حفل جنوننا، كأنّما لا يمرّ علينا وقت ولا يغلبنا نعاس.

أن نتمسّك بالحياة كأنّنا نريد أن نأخذها معنا.

أن نظلّ نضحك، رغم كلّ شيء، على كلّ شيء.

أن نبالغ ببأسنا حتى إذا ما أدركنا اليأس حسبناه مزحة.

أن نقاتل على كلّ شاردة وواردة إلى أن نتعب.

أن ندرك في سرّنا أنّ القتال لا ينتهي لمجرّد أنّنا تعبنا منه.

* شاعر وأكاديمي لبناني

■■■

كثرت الأماني والزمان يضيق

هدى فخر الدين *

لا أعرف لماذا نفترض أنّ بداية العام الجديد مناسبة للأماني والأحلام. وكأنّنا نأمل من العام المقبل أن يكون أرحب من الذي مضى. كأننا نرجو من الزمان أن يتّسع مع انقضاء كلّ عام، أن يهرم كما نهرم نحن، أن يفقد شيئاً من كبده، فيلين ما عصيَ ويَسهل ما صعب. لا أظنّ ذلك. كلّما مرّ عام أطمئن إلى أحلام أصغر من التي مضت وأرجو أقلّ مما رجوته من قبل، ربما لأنّني أجد في بيت الشريف الرضيّ هذا حقيقةً لا مرّ لها، كما هو الحال دوماً حين يتحقّق الشعر فيفتح لنا طريقاً أقصرَ وأسرعَ إلى الحقيقة:

كَثُرَتْ أمانيُّ الرجال ولم تَزَلْ متوسّعاتٍ والزمانُ يضيقُ

وزماننا العربي ضيّق جداً وخاصة في لبنان. صادف أنّي مررت في بيروت في زيارة سريعة نهاية هذا العام. مررت في بيروت، فلم أجدها ولم أجد نفسي فيها. وقد كانت ملاذي حتى وأنا أعيش بعيدة عنها. كنت دائماً أمن إلى فكرة الرجوع إليها، وأحلم بعودة أخيرة حين تنتهي رحلتي في البلاد الغربية. وحتّى الكتابة، يصعب عليّ أن أفكر فيها إذا لم تكن لي بيروت لأصل إليها في نهاية الجملة مهما طالت.

لذا لن أتمنّى شيئاً ولن أحلم بشيء هذا العام، وساكتفي بأن أحلم باستعادة الحلم، الحلم الذي فقدته كما فقده كثيرون مثلي في 4 آب 2020 حين وقعت بيروت في الظلام. قبل ذلك، وعلى الرغم من كلّ ما اعترى حيواتنا في لبنان وفي المنافي من خوف وحروب وفساد، كنّا ما زلنا قادرين على الحلم. منذ لحظة الانفجار، سُلبنا القدرة على الاختباء وراء المجاز، عُرّيتْ مخاوفنا وانكشف لنا وهمنا في وطن بنيناه على الأحلام والأماني. أمل في هذا العام الجديد أن نستعيد قدرتنا على الحلم بلبنان مقبلٍ قد يتحقّق يوماً، مهما ضاق الزمان.

* شاعرة وناقدة لبنانية

مقتطفات

يتزامن العدد الاخير من «كلمات» لعام 2022، مع مناسبتين: اعياد الميلاد ونهاية السنة. وعليه اخترنا لهذا الملف ان يجمع الحدّيْن، وان يربط بينهما بجعلهما، في انحياز كامل لمستضعَفي الارض، حدثاً واحداً يحيي امالَ الفقراء في ان يرثوا الارض في نُظُم سياسيّة، إن لم تكن اكثر عدلاً، فلتكن، في ادنى حدّ اقلّ ظلماً بتوزيعها الخيرات العالم وتحقيقها لتطلّعات الشعوب في تحقيق مساواة اجتماعيّة وسلام عميم يبشّر بهما الجميع عند مطلع كلّ عام. حرصنا على ان تتوزّع النصوص على مختلف الاداب الوطنيّة العظيمة التي ترفد الاداب العالميّة بنصوص مهمّة تمثّل كلّ الرقع الجغرافية عبر الارض. وفي الاخير، ذيّلنا الملف برؤى فكريّة يساريّة تنتصر للرسالة الاجتماعيّة الثورية التي اتى بها يسوع، كشخصية مركزيّة في كامل تاريخ شعوب الشرق. ولدى كل من يجعل من فتى الناصرة الاحمر رمزاً لمقاومة رومانِ وضدّ وقيّمي هذا العصر.

ترجمة وتقديم **رشيد وحتي**

ثلاثة مشاهد خلّدت رأس السّنة في الآداب العالمية

أ. غوستاف فلوبير: مَدَامْ بُوفاري، 1857
كانت زخارف الدنتلّا، مشابك الماس، الأساور الموشّاة، ترتعش فوق الغساتين، تتلألأ فوق الصدور، تجلجل فوق الأذرع العارية. أما جدائل الشعر، الملتصقة بالجباه برونق والملتوية عند الرّقبة، فقد كانت تبجّانُها في شكل عناقيد وغصون، من زهرة إذن الغار، الياسمين، الجلّنار، السنابل أو زهرة الثّرثُشان. خفق قلبُ إيما قليلاً عندما داعب فارسُها في الرقص رؤوس أصابعها، فتقدّمت نحو الصفّ في خط مستقيم في انتظار ضربة قوس الكمان كي تشرع في التّقدّم نحوه للرقص.

■■■

ب. فرانسيس سكوت فيزجيرالد: غاتسبي العظيم، 1925.
البارُ يشتغل بكامل طاقة تشغيله والكوكتيلات تطفو على الصينيّات في رحبة المتنزّه الذي تضفي عليه روائحها، بشكل رائع، بحيث بدأ الهواء يرتجّ بالثرثرات والضحكات، بتلميحات خُبرَةٍ، وما إن ينتهي المرءُ من تقديم نفسه لآخَر حتّى يُنْسَى، وبلقاءات حماسية بين نساء لم تعرف قط الواحدة منهنّ اسمَ الأخرى.

■■■

ج. عبد اللطيف اللّعبي: ماذا أعددتَ لرأس السّنة (قصيدة غير منشورة)
أيّ بستانيٍّ الروح
هل توقّعتَ للسنة الجديدة
مربّعاً من الأرض البشريّة
لتغرس فيها مرّة أخرى بضعةَ أحلام؟
هل اخترتَ البذور
شمّستَ عُدّةَ الشغل
استشرتَ تحليقَ الطيور
لاحظتَ النجومَ، الوجوهَ
الحصوات والأمواج؟
أما حدّثَكَ الحُبُّ في هذه الأيام
في لغته الغريبة؟
هل أشعلتَ شمعةً أخرى
لجُرح الليل في كبريائه؟
ولكن انطق
إنّ ما زلتَ هنا
قل لي على الأقل:
ماذا أكلتَ وماذا شربتَ
[النص الفرنسي من الموقع الشخصي للشاعر]

■■■

3. شذرات في استقبال رأس السّنة
- ما قرنٌ من الزّمن؟ إنه دقيقةٌ في اللّيل. (فلوبير)
- سنةٌ تنتهي، إنها حجرُ الشّي في قاع صهريج الأزمنة ويسقط برَنّات الوداع (فيرمين فان دِنْ بوش).
- ما السّنة إن لم تكن حجماً لا نهائياً من كمشة ثوانٍ. (دومينيك رولان).
- تأتينا السنون دون ضجيج. (أوفيد)
- ما مِنْ شيء ينساب سريعاً أكثر من السنين. (ليوناردو دافنشي)
- الأول من كانون الثاني هو اليوم الوحيد في السنة الذي تنسى فيه النساء ماضينا بفضل حاضرنا. (ساشا غيتري).
- نحن لا نشيخ بمُراكَمة سنة على أخرى، بل نتجدّد يوماً بعد آخر. (إميلي ديكنسون).
- سنحتاج يوماً إلى تأشيرة من أجل المرور من 31 كانون الأول إلى الأول من كانون الثاني. (جاك شْتْرْنْبَرْغ).
- لِنُحَيِّ جميعاً هذه السنة الجديدة التي تجعل الشيخوخة تدبُّ في صداقتنا، لا في قلوبنا. (فيكتور أوغو).
- سنةٌ جيّدةٌ تعوّضُ خسائر سنتين سيّئتين (فولتير).
- كانون الثاني هو الشهر الذي نقدم فيه أطيب التمنيات إلى أصدقائنا. وباقي الأشهر، هي حيثُ لا يتحقّق منها شيء. (لِيشْتَنْبَرْغ)
- لو شاءت الآلهة أن تحقّق أماني البشر الفانين، لكانت الأرض قفراء منذ زمن، ذلك أن البشر يطلبون الكثير من الأشياء المضرّة للجنس البشري. (أبيقور).
- أقدارُك أقدار إنسان، وأمانيك أماني إلهٍ. (فولتير).

■■■

4. يسوع النّاصري ثائراً (أربع رؤًى ماركسية)
أ. كَارْلْ كَاوْتْسْكي: يسوعُ مُتَمَرِّداً
وصل يسوع إلى أورشليم من أجل الاحتفال بأعياد الفُصح، فطرد الباعة والصّيارفة من الهيكل، وهو ما لا يمكن تصوُّره من دون تدخُّل عنيف من حشود مهمة كان قد حرّضها. بعد قليل من ذلك، خلال العشاء الأخير، ومباشرة قبل يوم الآلام، قال يسوع لمريديه: «لكِنِ الآنَ، مَنْ لَهُ كِيسٌ فَلْيَأْخُذْهُ وَمِزْوَدٌ كَذلِكَ. وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَلْيَبِعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سَيْفاً. لأنّي أقول لكم إنه ينبغي أن يتمّ فيّ أيضاً هذا المكتوب: وأُحصِيَ مع أثمة، لأن ما هو من جهتي له انقضاء. فقالوا: يا رب هو ذا هنا سيفان. فقال لهم: يكفي» (لوقا، 22:38). مباشرةً بعد ذلك، في جبل الزّيتون، بدأ الاصطدام مع السلطة المسلّحة للدّولة الرُّومانية. (من كتاب «أصول المسيحيّة»، 1909)

■■■

ب. أَنْدْري مَالْرُو: ... وفوضوياً
– والمسيح؟ – إنّه فوضويُّ انتصر. إنّه الأوحد من بينهم. أمّا بخصوص الكهنة، فإنّكم لا تستوعبون ربّما كلامهم جيّداً، لأنكم لم تكونوا أبداً فقراء. أنا أكرهُ أيّ إنسان يريد أن يغفر لي ما فعلتُه لأنّه أحسنُ ما فعلتُ. (من رواية «الأمل»، 1937)

■■■

ج. فالْتَرْ بِنْيَامينْ: ... ومهدياً
في كلّ حقبة، ينبغي مجدّداً انتزاع التقاليد من الاتّصاع الذي يحاول السيطرة عليها. فالمَسِيحُ لا يأتي فقط كمخلّص وفداء؛ بل يأتي أيضاً كمنتصر على المسيح الدَّجّال. فملكة إشعال شرارة الأمل انطلاقاً من الماضي أمرٌ لا يُضطلَعُ له إلّا المؤرّخ الرّسمي المقتنع كلّيّاً أنّه لو انتصر، أمام العدوّ، فحتى الموتى لن يكونوا في أمان. وهذا العدوُّ لم يَكُفّ أبداً عن الانتصار. فمَنْ خلاله، في كلّ ثانية، كان يُشْرَعُ بابُ ضيّق يمكن من خلاله أن يمرّ المَسِيحُ (من كرّاس «أطروحات حول مفهوم التاريخ»، 1940)

■■■

د. هادي العلوي: ... ومتصوّفاً اجتماعياً
من جهة الحركة التي اثارها يسوع الناصري، فهي تحمل خصائص مشتركة مع تحرك سابقه سبارتاكوس ولاحقيه الحلاج وصاحب الزنج، إلا أنه اختلف معهم في خطة الحركة اختلافاً يرجع إلى تقديره لموازين القوى واتعاظه من فشل سبارتاكوس. وننبّه هنا إلى أن القولة المشهورة عن كارل ماركس: «إن فشل سبارتاكوس مهّد لانتصار المسيح» يجب تعديلها لتكون: انتصار المسيحية. وللأسف لم أتوصل إلى النص الأصلي لمقولة ماركس واعتمادي على المترجمين، فلعلّه كان يعني المسيحية لا المسيح، وإلا فالمسيح لم ينتصر وكان حاله مثل حال سبارتاكوس والحلاج وصاحب الزنج الشهداء كلهم. أما إذا جعلنا انتصار بولص انتصاراً للمسيح، فينبغي أيضاً جعل انتصار حزب العمال البريطاني انتصاراً لكارل ماركس. وكما قلت، ففي المسيح تجتمع صفة الصوفي والتاوي، لكن ماهيته الصوفية والتاوية تتمظهر في نبوّة متحركة قائدة تحرّض وتنظم من دون أن تخضع لاعتبارات السياسة اليومية كنبوّة بني إسرائيل أو نبوّة محمد. فالمسيح يأخذ في أحلامه وأشواقه كما في مسلكه الشخصي صورة التصوف والتاو، وفي حركته صورة الحلاج لا صورة تشوانغ تسه أو البسطامي لأنه نزل إلى ميدان النضال المباشر. ويصعب في الحقيقة إيجاد نظير للمسيح لا كنبي ولا كمتصوف ولا في صفة التاوي، فهو شيء خاص اسمه المسيح. [...] تحرك المسيح وسط جماهير العبيد والفقراء، فكانت صلته كما تقرر في مسالك التاو والتصوف. وصدر عن نفس المسالك في قطعه مع الأغنياء وإخراجهم من ملكوته. وحرّم كنز الأموال مستعملاً نفس اللغة التي استعملها التاويون في «تاو تي تشينغ». والمسيح من آباء الصوفية الإسلامية وهو أقرب الأنبياء إليهم. وهكذا كان مع المعرّي. ومن بين الأنبياء، فهو نبي المشاعية الأمْيَزُ والأبرز. وقد حاول أن يعطي تحركه صفة الحركة الدينية التي لا تفكر في السلطة للتعمية على الرومان ريثما يشتد عود الحركة وتتسع في أوساط الجماهير. وفي حقيقة الحال أنه كان يسعى لإقامة معسْر مشاعي داخل المجتمع الفلسطيني المحكوم بالرومان. ولا ندري بماذا كان يفكر زائداً عن ذلك. ومعشره المنشود يشبه معشر القرامطة الذي أقامه حمدان بن الأشعث في سواد العراق. وقد سعى حواريوه لمواصلة الرسالة من بعده لكنهم لم يجرأوا على المجاهرة بأفكارهم بعد الذي حل بنبيّهم، فكانت حركتهم شبه مجدّدة إلى أن تلقّفها بولس وسيّرها في الطريق الذي انتهت إليه ديناً يسمى المسيحية والمسيح لا علم له به. (من كتاب «مدارات صوفية، تراث الثورة المشاعيّة في الشّرق»، 1997)

«المسيح طارد الصرافين من الهيكل» لالا غريكو (زيت على لوح ـ 1568)

ملف

رسالة إلى 2023: وَلّى زمنُ المُعجزات

ذيول رأس السنة!

محمد مظلوم *

يُفترض برسالة السنة الجديدة، أن تتوجه، مضمونياً، إلى القراء والعالم بالتهنئة، وتكون حالمة ومتفائلة، وأن تتسم، شكلياً، بالإيجاز وبكلمات جديدة، «لأن كلمات العام الماضي تنتمي إلى لغة العام الماضي وكلمات العام التالي تنتظر صوتاً آخر» كما كتب أليوت في رباعية «ليتل غيدنغ»، فمع حلول كل عام جديد، ماضٍ يمضي وجديد يستجد!
لكن أي قديم يُعاد وأي قديم يُعاف؟
ولأنّها رسالة شخصية «إلى» السنة الجديدة نفسها، فستبدو مشحونة بالغضب وتنطوي على إشارات استفزاز وصدمة، وأمل أن لا تفسد أمزجة المحتفلين بهذه الليلة، فثمة جردة حسابات عالقة مع سنوات سابقة بحاجة لتصفيتها مع وريثتها: «هذه السنة الجديدة» قبل أن نؤمّنها على أحلامنا ونعلّق عليها آمالنا، فتلك سنوات «عجاف وأطول من سنيّ يوسف» كانت مليئة بالتحديات لكثير من شعوب المنطقة والعالم، سواء على المستوى الفردي أو الجمعي. وفي عالم من الحروب والأوبئة والفقر، والمبتات المجانية، وفي عصر غروب الإنسان، وانحسار الأحلام، فإنّ عاماً جديداً لن يكون مُنفصلاً عما سبقه من أعوام، بل هو موصول بها بحبل سري، فالثلاثة وعشرون عاماً الماضية من عمر الألفية الثالثة كانت حقبة الحروب والنزاعات والأزمات الاقتصادية والاضطراب النفسي والشقاق الأهلي في شرقنا (ولا سيما العراق وسوريا ولبنان وليبيا واليمن)، فمع مطلع الألفية، عادت شمس الكولونيالية إلى الشرق من بين أنقاض الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) 2001، بغزو العراق 2003 وقبله أفغانستان 2001، ثم عمدتْ لإرسال أشعتها الشقيّة لتهيج «الربيع العربي» 2010-2011. فهل نأمل من سنة 2023 أن تتمرد على شقيقاتها وأمهاتها من السنوات السابقات وتأتينا بوفرة من أمنيات؟ أم ما هي سوى ابنة أخرى لعصر السلالة الإمبريالية الذي لم ينته بعد؟ وإن ظهرت عليها ملامح الشيخوخة، فلَمْحةٌ ملامح صورة أميركا المستقبلية بصورة جو بايدن الحالية.
ولأنها سنة موصولة بنسيج وثيق من عقود وأحداث، استحضر هنا قصيدة أودن الملحمية «رسالة السنة الجديدة» التي نشرها بعد عام من هجرته إلى الولايات المتحدة ومع بداية الحرب العالمية الثانية، فهي لا تزال صالحة لعصرنا، رغم أنها مؤرخة في 1 كانون الثاني (يناير) (1940) ومهداة إلى إليزابيث ماير وهي مترجمة وموسيقية ألمانية انتقلت إلى الولايات المتحدة هرباً من الاضطهاد النازي. وكان ينبغي لمثل هذه القصيدة أن تكون احتفالية وتحية شعرية يستقبل بها ذكرى أول عام جديد له في أميركا، وهو الذي تنقّل بجغرافيا مضطربة من الحروب عبر ألمانيا في صعود النازية، وإسبانيا خلال الحرب الأهلية، والصين في أتون الحرب الصينية اليابانية، فقرر أن يفرّ إلى أميركا مع نذر الحرب العالمية الثانية، لكنه سرعان ما اهتز كيانه إزاء أخبار كارثية من وطن بعيد، فكتب قصيدته عن «السنة الجديدة» تحت وطأة التوتر وعدم اليقين:

«فجر اليوم الذي اندلعَتْ فيه الحربُ على أرض بولندا،
أضاءتْ فوقَ أميركا وفوقَ كُوخ بلونغ إيلاند»

لقد رأى أودن أن الحرب العالمية الثانية اندلعت ليس لأن القادة أنشبوها، بل لأنّ الكراهية كانت تستعرُ بالفعل بقلوب البشر في أوروبا منذ هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، والعمل على إذلالها بالحصار وفرض المعاهدات الجائرة، فكتب «رسالته للسنة الجديدة» مشدّداً على أهمية التغيير الثوري انطلاقاً مما وصفه «تغيُّر القلب» وتحول المجتمع من سيكولوجية الخوف المنغلقة إلى سيكولوجية الحب المفتوحة.
ألا تبدو لحظة مشرقنا الراهنة، شبيهةً بلحظة الغرب تلك؟ فهل من تفاؤل بعام جديد يمكن أن يُلتمس في عالم يحكمه التهديد لا التسامح؟ وفي ظل حياة مليئة بالذعر والنزاع وليس التعايش والمحبة؟.
وسط هذه الأجواء المضطربة يجتمع العالم كله للاحتفال في يوم واحد، وكلٌ يتباهى أن الجميع يحتفل معه في هذه اللحظة، وأنه شريك بحصة كاملة في هذا العالم، لكن التوقيت ليس موحّداً على أرضنا الكروية؛ وإذ ينبغي أن ينغّص المحتفلون بليلة رأس السنة ليستجمعوا شتات أنفسهم بما يجعل العيش في الواقع والمجتمع الحديث أمراً ممكناً، فإنهم ينصرفون من تلك الليلة ليتفرّغوا في بقية أيامهم لحروبهم وخصوماتهم، وتنكيلهم ببعضهم البعض، فكأنها ليلة استراحة للمحارب أو كلام ليل يمحوه نهار واقع قاسٍ.
في هذه الليلة الباردة، ثمة من يلوذ بالنبيذ والفودكا، ليحصل على الدفء والنسيان تحت وطأة أزمة وقود التدفئة!
في هذه الليلة ثمة من يذهب إلى الحانات والمطاعم ليحظى بدفء الآخرين في حفلة مع أكبر عدد ممكن من الأصدقاء، أو ليتعرف على أشخاص جدد، وثمة من يكتفي بالاحتفال مع أسرته، وثمة الوحيد الذي يأنس لخلوته. لكن هذا هو حال الناس على مدار العام، وليس حصراً بليلة رأس السنة. شخصياً وعبر مراحل حياتي، جرّبتُ كل هذه الخيارات وأيقنت أن السنوات هي شهرزاد الحكاية، وأن ألف ليلة وليلة لا تُختزل بليلة. الله نفسه لم يخلق العالم في يوم واحد. وحين يتحاضن المحتفلون مع تطابق عقارب الساعة، فإنّ هذا التماهي الافتراضي مع الزمن، لن يكفي وحده لخلق حياة جديدة، على طريقة «تخلّص من القديم وعليك بالجديد». فالسنة الماضية ليست زمناً للنسيان، لترمى خلف ظهورنا بوصفها عبئاً بل طرحها لمراجعتها، فلرأس السنة ذيول أيضاً، وهي ليست يوماً حاسماً في التاريخ، لا الشخصي ولا البشري. ومع هذا ثمة من يتخذ في هذه الليلة قراراً شخصياً صغيراً كالإقلاع عن التدخين أو التوقف عن الشرب أو بحسم أمراً بشأن الحب أو الزواج والانفصال. ويختار توقيتاً عالمياً لإعلان قرار شخصي، كأنه يريد أن يشهد العالم على قراره. والواقع أن كثيراً من القرارات الشخصية مرتبطة بمعطيات المحيط، فأي قرار مهما بدا مغرقاً في الشخصية مرتبط بأحداث واشتراطات في عالمنا اليومي. وليس في كَون لا مرئيّ.
من الواضح أن إنسان الألفية الثالثة، بدأ أقل إرادة وأكثر ياساً، في إصلاح حياته، حتى سَلَّمَ بأن حلول الأرض انتهت بالنسبة إليه، فراح يتطلع لحلول السماء.
لكن أي سماء؟ أهي سماء المنجمين؟ ومنازل الأبراج، وتهافت العرافين؟
لقد صنف «التنجيم» ضمن العلوم الزائفة (وبعبارة أخرى دجلاً) حتى قبل عصر التنوير في القرن الثامن عشر، إلا أن حديث الأبراج والتكهّن بالمستقبل، اصبح، في مشرقنا، الوجبة الأشهى والشراب الروحي المسكر لكثيرين على مائدة ليلة رأس السنة. «عرّافو المستقبل» ليسوا وسطاء روحيين مع الغيب، ولا هم رُسلٌ بوحي، بل ينطقون عن هوى، وهوى أغلبهم لدى قادة دول، وزعماء مافيات، أو هم ناشرو إشاعات لأجهزة مخابرات. في عصرنا، ما من كاهنات ومنجمات حفيدات دلفي أو وصيفات لملكة الغجر. ومع هذا صارت التسلية بقراءة ورق الكوتشينا، أو بطاقات التاروت، لعبة محكمة تتلاعب بالمصير، وصار الدجالون يزعمون التحليق مع الأفلاك والأبراج، ومعرفة مسالك السماء.
ولأنّ المسافة معقدة وملتبسة في الروحانيات بين الخرافة والحلم، بين حدود التقاويم واشتراطات الوقائع، فإن السؤال يتلخص في كيفية التخلص من الخرافات والتمسك بالأحلام بسنة «جديدة» حقاً.
لتكن الصعّادات أضواء تنوير تضيء السماء ترحيباً بوعي جديد، وأصوات تنبيه لإيقاظ الروح من غفلتها المديدة، لا فرقعة وقرقعة ومجرد تسلية عابثة لليلة عابرة.
ليكن الخروج من حفلة الحياة التنكرية في رأس السنة، خروجاً إلى الحياة كما هي، والإيمان بأن حياتنا جديرة بالتغيير، وإنّ الإرادة هي ما يحتاجه إنسان الشرق، شرقنا العربي، حيث الوحي الخلّاق لروح حرة، الإرادة التي بنت الحضارة بالخيال والجمال الذي أوحى بهما الشعر والفن، شعر الشاعر الحق الذي يخلق نبوءته بخطاب بليغ يمزج بين حدس الروح والمعرفة العقلية، وعفة الضمير، وصدق التجارب وعمق التحليل.
ما نحتاجه في السنة الجديدة إعادة شحن الحياة بالأمل والعمل وجمال الفن والخيال الخلاق، لا الانخراط مع حشد الضحايا المُتَكلين على أضغاث أحلام. فالحياة بقدر ما هي هبة، هي خَلقٌ وإرادة. كتب جوزيف برودسكي، حين أصبحت احتفالات رأس السنة الجديدة في الاتحاد السوفياتي بديلاً لعيد الميلاد:

«واضِحٌ أنّكِ تقدَّمتِ في السنِّ الآن
إنْ تتّكِلي على «بابا نويل» الطيب؛
فقد ولّى زمنُ المُعجزات.
- لكنْ إرفعْ عينيكِ فجأةً
نحوَ نُور السَّماء، تُدرِكْ:
أنّ حياتَكِ هِبةٌ خالِصَة»

* شاعر ومترجم عراقي

■■■

كولاج للفنان الفرنسي ماتيو سونييه المعروف بـ «خان نوفا»

في تصوّر الأمل

محمد خير*

في إحدى حلقات المسلسل الكرتوني الأميركي الشهير «آل سيمبسون»، يقوم عنصران من المباحث الفيدرالية الأميركية بمراقبة «هومر سمبسون»، ثم يكتبان في تقريرهما: «عادةً يكتب الناس خطابات إلى نجوم الأفلام. أما هذا الرجل، فيكتب الخطابات إلى الأفلام نفسها!»
هل يمكن أن يكتب المرء خطاباً إلى شيء يجمع بين التجريد، والكينونة، في ذات الوقت، كفيلم سينمائي، أو كعام ميلادي؟
وإذا كان الإنسان قد عاش أعوامه السابقة فعرفها وخبرها، فبأي معرفة يمكن أن يخاطب عاماً مقبلاً؟
يمكن أن يقول المرء، بلا خطأ كبير، إنّ العقد الماضي، الذي بدأ بالربيع العربي، وبغض النظر عن مآلاته، قد «ميّزه» اختطاف الوقت، كأن الزمن يسرق نفسه، ويسرق - بالضرورة - أعمارنا معه. هي سنوات بدت كأنها سلسلة من فعل الإضاءة/ الإظلام. كما فوق خشبة مسرح أو تصوير سينمائي، ومع كل إضاءة يكتشف الممثل ازدياد التجاعيد في بشرته، اتساع الشيب في رأسه، عطلاً إضافياً لأعضاء جسده، أو/و فقد أحد أحبائه.
ثم تأتي الكورونا، ويأتي في أولها الطلب الذي بدا بسيطاً، بأداء له صوت فحيح السحرة في الحكايات: «ابقوا في المنزل أسبوعين فقط». والأسبوعان امتدا إلى سنتين وأكثر، وأخذ الوباء معه ملايين الأنفس، وأطاح بوظائف واقتصاديات ومستويات معيشة.

> **ايقنتُ ان السنوات هي شهرزاد الحكاية، وان «الف ليلة وليلة» لا تختزل بليلة (محمد مظلوم)**
>
> **نأمل، على طريقة إثارة مباريات كأس العالم المنقضي، أن يفاجئنا العالم هذه المرة ويجنبنا الأحزان ولو بحكم الصدفة (محمد خير)**

ثم بدا أخيراً أنّ 2022 هو عام الانسلاخ من كل ذلك، عام توقّف الوباء عن أن يكون ذاته. ومع خروج العالم منه، ومع بدء الحرب الأوكرانية، بدا أن الربيع العربي قد أصبح ماضياً، وأن مشكلات دول الربيع لم تعد النتاج المباشر لربيعها، بل هي نتاج ما أنتجه في الداخل، وعالم الوباء ثم الحرب في الخارج. لقد كبر من كان ربيع العرب مشهداً من طفولتهم، وصار بالنسبة إليهم ذكريات مشوّشة، بل كبر من أصبحوا نجومهم، فأين كان «يوغز» يوم «جمعة الغضب»؟ كان تلميذاً صغيراً في أحد أحياء الإسكندرية، ربما لم يكن يعرف حتى ما الذي يجري. وها هو يغني في ختام «مونديال» كان يبدو بعيداً جداً في الزمن حين خرج شبان الربيع يحلمون، وها هو قد حان وانتهى، ورفع ميسي الكأس في حدث ربما يكون محل أول سعادة كونية منذ أمد غير معلوم.
ويقترب العام الجديد، أنت يا 2023، الذي نأمل - ولو بمنطق المجاز - أن نخاطبك وأن تسمعنا، ونحن نسمع ونقرأ خبراء الاقتصاد يحذّروننا مسبقاً من الأمل، ويعلنون أن العام الجديد - أنت - سوف يكون أشد صعوبة من العام المنصرم، الذي كان عام التضخم وارتفاع الأسعار وانهيار العملة وانخفاض القوة الشرائية. انتهى زمن الاحتفال الساذج وفتح علب الهدايا تحت شجرة العام الجديد. الهدايا فارغة - يقولون - أو مليئة بالتراب. لكننا نأمل، على طريقة إثارة مباريات كأس العالم المنقضي، أن يفاجئنا العالم هذه المرة، ولو بحكم قوانين الاحتمالات التي تمضي في عشوائيتها الأبدية من دون أن تعرف خيراً أو شراً، أن تتجنبنا الأحزان هذه المرة ولو بحكم الصدفة، فقد تجرعنا منها نصيبنا وأكثر، وأن نعثر، حتى وقد صرنا عاجزين عن تصور الأمل، على أمل لم نستطع أن نتصوّره.

* روائي وشاعر وقاصّ مصري

... وما زال في العمر بقية

زهرة الظاهري *

نودع ديسمبر ليقفل أبواباً كثيرة خلفه، ويتنحّى جانباً ليترك مكانه لسنة جديدة ستحلّ علينا بكل جديد وستُقام احتفالات كثيرة على نخبها.
سوف نُسائل عن أوجاعنا الماضية وعن أمانينا القادمة. وسنوكل أحلامنا التي أرهصت إلى الأيام الآتية تنظر فيها وتحاسب سنة كانت ثقيلة على أرواحنا. وسنتمنى كما تمنينا منذ عقود طويلة بأن يكون القادم أجمل بُعد أن نزهق في الساعة المتأخرة من الليل روح عام أصبحنا نراه ضيفاً ثقيلاً، وقد كنا منذ أشهر خلت نمارس نفس طقوسنا الاحتفالية في احتفائنا به.
الغريب أن أيامنا متغيرة وسنوات عمرنا تمرّ على عجل من دون أن نفطن إلى أنّ لا شيء تغير فينا وأننا نعيش حالة ركود وثبات مستمرة لا عمل لنا سوى توديع سنة بالتطيّر منها، وصب كل لعناتنا عليها واستقبال أخرى بالبهجة والتهليل في انتظار اليوم الذي سنلعنها فيه لأنها كسابقاتها لم تكن إلا سنة مضت من أعمارنا ومرت لنظل على ما نحن عليه من التوجس والانتظار.
مع ذلك، لا يمكننا إلا أن نكون معلقين بالانتظار والتمني، ولا أحد يمتنع عن معايشة الفرح بقدومك أيها العام الجديد كما لو أننا نطوي صفحات كثيرة نتركها خلفنا، ونمضي قدماً خلف أمانينا المعلقة بك، بالقادم الأجمل، بالحياة المليئة بالحب والصفاء. وبعيداً عن كل المنغّصات وبكثير من التفاؤل والتيقن، نتمنى أن تحل علينا أيها العام الجديد كأجمل مناسبة للخيرات والمسرات والبهجة، ولتكن عاماً مليئاً بالأمنيات والأحلام المنجزة.
ولأننا لا نزال على قيد الوجود وما زال في العمر بقية، لا بد أن يكون على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

*روائية تونسية

■■■

مرحباً بأحلامنا المجهضة

سعد بن حسين *

لا يمكن إلا أن أرحب بقدومك. سأدرك الستين بحلولك، وسأصير شيخاً بشكل رسمي... شيخ بلا حكمة وبلا إنجازات كبيرة. مضطر للترحيب بك، رغم علمي أنك لن تكوني أفضل من سابقاتك... بل وشبه متأكد أن بلادي وأهلي سيعيشون فيك أصعب الظروف على كل المستويات... فأنت سنة ستكرس استمرار إقامتنا في ظلام النفق. مرحباً بك.
مرحباً بالحروب التي قد تندلع في مناطق مختلفة من العالم فيك! مرحباً بعودة الأمراض والأوبئة! مرحباً باستمرار معاناة الأشقاء في فلسطين وليبيا واليمن والسودان. مرحباً بالجوع والقحط والجفاف. مرحباً بالكوارث. مرحباً بتواصل انقطاع الودّ بين عديد الأقطار العربية.
مرحباً بأحلامنا المجهضة... ستبقى مجهضة.
مرحباً بضياع التربية والتعليم. مرحباً بالجهل وعودة الخرافة والكتب الصفراء. مرحباً بتسطيح العقل العربي وانتشار ثقافة الإنستغرام والفايسبوك والتيك توك. مرحباً بتواصل تهميش المفكرين والمثقفين والفنانين... مرحباً... مرحباً.
أرجو أن تمرّي بسرعة، فلا أضمن أن تكون السنة الموالية أفضل منك. لن أحلم. لن أخطط لإصدار جديد أو لسفر قد لا تسمح الظروف بتحقيقه خلالك. لن أبني قصوراً من ورق.
مرحباً مرحباً
قد أختار العزلة فيك. سأركز على حماية أسرتي وأطفالي وأعدّهم لمجابهة الكوارث القادمة.
مرحباً مرحباً

* قاص وكاتب سيناريو تونسي ومدير سابق لـ «بيت الرواية»

ملف

رسالة إلى 2023: المخلص إليك... طالما أنك لا تأتين

دعيني أربت على كتفك أيتها الغريبة

سلمى عمار *

ليس من عاداتي مُحادثة الزمن ولا مراسلة أيامي القادمة، كنت دائماً ذاتية الخطابات، أُسَامِرُ نفسي وقلبي، حواسي وأعضائي، وحتى حاجياتي الجامدة المحيطة، وكل ما له علاقة بما يؤثث يومي الممل الرّتيب، لم أكن أخرج عن تلك الحدود، ربما، لأن أحاديثي لا تعدو أن تكون سوى أضغاث ثُرَهاتٍ في غُرف من يحكمون زمام الجدية والوقار.

اليوم، وأنا أتطلع إلى الآتي، صرت أدرك جيداً أن هذه السنة التي أخذت من صبري، ألمي، وحدتي، رفقتي وتطلعاتي الكثير، ماضيةٌ لا محالة كما مضت حياتي قبلها، وأن ما أنتظره من أيام مُقبلة بكل تلك البهرجة التي يتحدث عنها الجميع، لن يكون أبداً بتلك السهولة التي أرى فيها الآخرين، يصوّرون لنا عبوره الهادئ بكل ثقة وبكل سلاسة.

ماذا بوسعي انتظاره منك أيها العام المقبل بكل أحماله غير المعروفة؟ بكل ذلك الصخب الصامت الذي ينتظر مني هدهدة لكي يطربني بصرخاته؟

تُراني سأكتب لك قائمة طلبات وأمنيات طويلة كتلك التي كنت أرسمها في خيالي عند نهاية كل سنة، قبل عشرين سنة؟!

لا أظن ذلك، لقد كنت أبصر منذ مدة ملامح الأعوام الجديدة التي تبدو مبهمة وغامضة، ذات ملامح مشوشة، خلال آخر أيام العام الذي يسبقها، وهذا ما يزرع فيّ المخاوف والتردد في فتح أفق الأماني والتطلعات.

نحن لا نعيش خلال هذه الليالي التي تلفظ آخر أنفاسها إلا على عبث آمالنا الكبيرة جداً، رغم أننا نعرف جيداً أنّ تطلعاتنا تلك، تفوق بكثير ما سنغنمه خلال العام الجديد، مع ذلك، نستمر في الحلم حتى ونحن تحت رحمة العذابات الآنية والاختبارات المفاجئة التي تضعنا فيها الحياة كلما هممنا بالعيش واغتنام الراحة.

> كان الأمر أسهل لو وجّهتْ الرسالة لعام 2023 قبل الميلاد، فقد كنا حينها في ليبيا بصحة أفضل (سراج الدين الورفلي)

رُحماك إذن، أيتها السنة الجديدة، دعيني أربت على كتفك أيتها الغريبة، لعلي أغنم منك بعضاً من الأمان الذي ضاع مني منذ أمد، لا تديري لي ظهرك كما فعل الجميع، فقط كوني رحيمة بهذه الروح التي لا تبلغ إلى الآن ورغم كل ما مضى إدراك درب للقسوة.

لا تقلقي، لن تكون لي قائمة أمنيات ضخمة، ولا أشياء تعجيزية كما تلك التي كنتُ أثقل بها قريناتي في الماضي، فكلما مرّ بي الزمن، أدركتُ أن راحة القلب وصفاء الروح من تراكمات الغضب والقلق وأشلاء المشاعر المحترقة، قد تصير أكبر النعم التي قد نحظى بها لنكمل سعينا الحثيث في هذه الحياة.

تعالي ها هنا يا أيامي القادمة، تريّثي قليلاً وأنت تدوسين بقدميك بلاط رفقتي معك، فقد تنزلقين تباعاً نحو حتفك من دون أن ندري ذلك، وقد نتوه عن بعضنا البعض خلال الوقت الذي تحاولين فيه أن تكوني عَطوفةً بي، فتقسين من دون رحمة، ولو لم تقصدي ذلك.

امنحيني بركة الكتابة والبوح، فقد قضيت سنة كاملة أحاول فيها اقتفاء أثر أي نصّ أحبه من دون جدوى، أنت تعرفين جيداً أنّ الحياة عندي تكمن في الكتابة والعيش في أحضان الموسيقى، أعرف جيداً أن السنوات السابقة باحت لك بكل أسراري الغريبة، وأنك درست حالتي جيداً، عكسي أنا التي لا أعرف عنك سوى عمرك الحالي...

رُحماك، فلستُ أبلغ منذ مدة نشوة النص المبتغى، ولا لذة تاوهات الذروة وقتما أجد الكلمات التي تحكيني، أو تُرتل ما أراه وما القاه خلال أيامي ذات الصمت المهول، إن العيش يا عزيزتي دونما لذة أو نشوة ليس سوى موتٍ يبقينا تحت رحمة الاعتياد الرتيب.

أيتها السنة المقبلة، تفضلي عليّ بجمالك، واخجلي عنّي قبحك قليلاً، فقد لا نلتقي أنا وأنتِ حينما قد يطيب لنا اللقاء، وقد لا تشاطريني الرأي في كيفية عيشك التي غالباً ما ستكون بين أربعة جدران بحثاً عن الراحة، لكنني أكيدة أيتها السنة الغريبة بأننا سنتشاطر بعضاً من الأوقات السعيدة التي سنسرقها من «إلهك»، من هذا الزمن المتجبر الذي لا يمنحنا الكثير لنكون ما نبتغيه.

لقد تجردتُ منذ مدة من قدسية الوقت ومن حساب قيمة الزمن، لكنني ما زلتُ أحاول من حين إلى آخر أن ألحق ركبه ببعض من الصحوات المتقطعة التي قد أصطاد فيها بعضاً من أحلامي المؤجلة.

أعلم جيداً أنني أطلت عليك الحديث يا مُبهمة الملامح، لكنّ لي طلباً صغيراً أتمنى أن تضعيه في حساباتك حينما تقررين اقتحام خلواتي وأوقاتي بخطاباتك الجدية خلال كل فصولك.

أرجو ألا تحرميني من هذه النفس التي لا تقوى على الكراهية ولا على الحقد مهما حاولت ذلك، ساعديني يا عزيزتي على التشبث بما أنا عليه من الداخل، ولا تحرميني نعمة الرحمة والمغفرة. لا تضعيني تحت امتحانٍ أخرج منه مشبعة من كل شيء وخالية مني، لأن ذلك هو موتي الكبير. أنا أفقِدُني عندما أغدو مفرغة من الحياة ومن القدرة على الحب وعلى الغفران، أما عن بقية الأماني فلا تقلقي منها، كلّها بعد ما طلبته منك يكون سهل المنال، سيتطلب الأمر مني فقط بعضاً من الشجاعة، والكثير الكثير من الأمل الذي سأنزل له صَاَرتي بكل الصبر الذي أعده مسبقاً، هكذا، سأجد الوقت للتأمل إبان رحلة الصيد هذه، ولعلني أكتسب خلالها قوة البصر والبصيرة لأرى ما ومن حولي بشكل أوضح، ولمح خيالي في مياه بحيرة الحياة، من دون أن ألقى مصير نارسيس، حيث لا تغزني الصورة بقدر ما سأرى ما وجب عليّ أن أكونه في الحقيقة.

* كاتبة جزائرية

...

قادمة إليك من حزني وخيباتي وألمي

هدى حاجي *

1. أيّها العام الجديد، وأنت قادم إليّ من المستقبل، لا تحمل إليّ معجزات، ما أريده هو الآن وهنا عند زهرة ألْولفيرا، لقد نسيت فقط أن أستيقظ وأن أفرك عيني.

2. أنا لا أنتظرك لتأخذ بيدي وتعبر بي جسرك إلى ضفّة حلم وأمنيات، لا أحد باستطاعته أن يفعل ذلك، لا أحد بإمكانه أن يجعلني أنفلت في مجرّة نجوم سوى انخطافي.

3. أيها العام الجديد، لم أجهّز لك حزمة أمنيات ولا أشعلت لك شموعاً كي تمنح حياتي بركاتك، أنت لست كبسولة سحرية كي تعبر بي لحظات خوفي وحيرتي وظلمتي. أنا لن أطلب منك أن تمنحني طمأنينة الوجود والسعادة الفجّة، هبني مجازفاتك وامنحني بأخطارك، لا أريد أن أطفو على سطوحك الفجّة ولا أن أستقرّ في قاع التفاهة وأنا أغوص عميقاً لأقتلع جواهر معناي.

4. أيها العام الجديد، أنا قادمة إليك من حزني وخيباتي وألمي، من جرح الوجود، لا أحمّل عندي تكمن في الكتابة والعيش في أحضان الموسيقى، أعرف جيداً أن السنوات السابقة باحت لك بكل أسراري الغريبة، وأنك درست حالتي جيداً، عكسي أنا التي لا أعرف عنك سوى عمرك الحالي...

5. كسر الذين رحلوا في السنوات الماضية قلوبنا و«ارتفعوا غيوماً» (وديع سعادة).

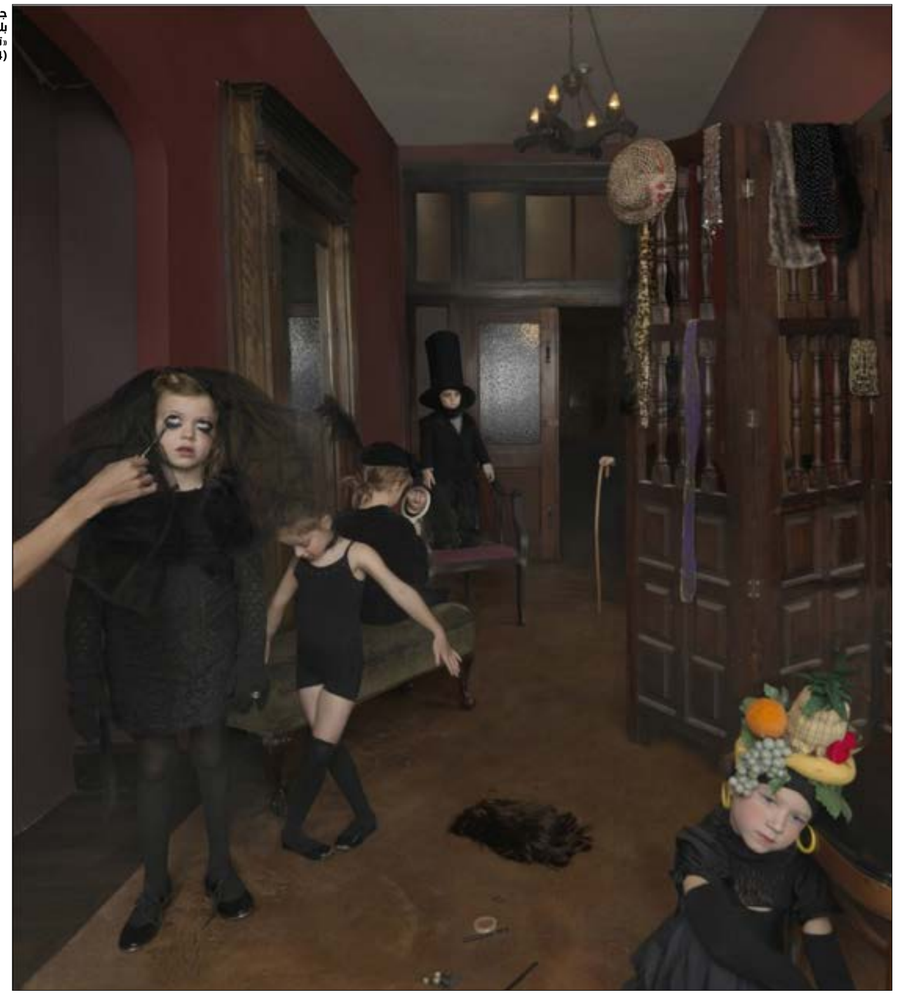

جولي بلاكمون ـ «تجريب الأزياء» (2014)

موتهم سحق هشاشتنا وأحرق أرواحنا، فـ«الموت لا يوجع الأموات، الموت يوجع الأحياء» (محمود درويش). لن أرجو من السنة الجديدة عمراً مديداً، فأنا لا أهاب الموت. مَن يدري، لعلّني حين أموت أنتقل إلى حياة أخرى «لا موت هناك، هناك فقط تبديل عوالم» (سيائل، الزعيم الهندي الأحمر).

6. أيّها العام الجديد، تعلّمت في عزلتي وأنا مزدحمة بنفسي أن أرتق بالشعر جروحي والهاويات التي حاولت أن تفترسني بأنياب اليأس، تركت خلفي تلك السنوات التي رصفتها كجدار حتى سقطت عليّ وطمرتني، انكسرت وتشظيت واغتربت لكن الشعر منحني «رئة جديدة للتنفس» (محمد عضيمة). بلسَمني الشعر وأصلح أعطابي.

7. أيها العام الجديد، أنا شاعرة لكنني لست مفتونة باليوتوبيا ولا أرغب في قطف النّجوم، رأيت الله حين شاهدت بتلات وردة منعكسة وردات في قطرة ندى لن أحمل إليك ضراعات، يكفيني أن أنظر إلى الأرض الناهدة بالسنابل، تضيئني قمحة أكثر من نجمة في السماء، يضيئني رغيف خبز في يد فقير أكثر من قمر ساطع.

8. غير عابئة بالحرب/ تواصل زهور البرقوق/ تفتّحها

أيها العام الجديد أعتذر لك نيابة عن كل البشر، عن المفسدين في الأرض، أعتذر لك نيابة عن القتلة الذين جعلوا هذا الكوكب الذي كان يتنفس بعمق يختنق، أعتذر لك لأنك لن تجد الزهور عندما تأتي، لن تجد الربيع، لن تجد الفصول، لن تجد المطر، لقد قطعوا الأشجار وجرفوا العشب وأحرقوا الغابات، جعلوا تسونامي يبتلع الشواطئ، جعلوا دلتا النيل يغرق في البحر، جعلوا الطوفان يغرق الشوارع وركام القمامة يعلو كالجبال. الذي زرع هذا الخراب هو هذا الكائن المنفلت، المتورم بمركزيته، المتوحش، المستهتر بالتوازن البيئي، الملتاث بحروبه اليومية، المولوع باطماعه السياسية وإفلاسه الأخلاقي. ستلاقي هذا الأقنوم لكنك لن تجد فيه الإنسان.

9. أيّها العام الجديد، يا واهب الفصول الأربعة، أثنا عشر قمراً ستسطع، ثلاث مائة وخمس وستون شمساً ستشرق، خسوفات، كسوفات، محيطات وبحار سيسحبها مدّ وجزر، امنحني لحظاتك المهملة لأرجّها وامسك اللحظات الطالعة منها، امنحني دمدمة عواصفك لأصرخ والتماعات ندالك لأهدأ، امنحني رياحك وبروقك، خفيف أشجارك، خضرة حدقك لأرهف حواسي، امنحني أصواتك ليشف إنصاتي، امنحني حيواتك الصامتة والذاهلة والباهتة لأمنحك يقظتي، امنحني شتاءاتك السباتية الطويلة لأحتطب لك من غابة الشعر شذرات متّقدة بجذواتي، امنحني غوايتك وجمالك الغامض لأسبر أغواري ومعناي... امنحني مياهك السرية لأمنحك موسيقى ينابيعي. ليتني زهرة لوتس، ليت حياتي بحيرة صافية.

* شاعرة تونسية

...

نيزك كلّه شوق للاصطدام بالأرض

سراج الدين الورفلي *

عزيزتي 2023،

ها أنا لا أنتظر قدومك، وهذا بحد ذاته ليس إنجازاً بالنسبة إليّ، كما أنه بعيد كل البعد عن كونه أمراً سيئاً أو جيداً. إنه كأخذ تدريبات مكثفة على السباحة في حين أنك تكون قد غرقت فعلاً منذ زمن وانتهى الأمر، لا تأخذي الأمر بشكل شخصي.

حين كنت طفلاً، ظننت أنك حين تأتين، ساكون في كوخ من اليورانيوم الشفاف فوق جبل من جبال اورانوس المطل على إحدى المجرّات الأرجوانية المتلألئة واربي العينين وانصرفت للسبات حين كانت شجرة التفاح تزهر وعصافيرها تغنّي.

5. كسر الذين رحلوا في السنوات الماضية قلوبنا و«ارتفعوا غيوماً» (وديع سعادة).

عادات مسروقة من الرجل الأبيض، وكلها أمارسها بشكل ركيك ومصطنع، في بقعة حزينة وبائسة خارج قياسات الزمن. على أيّ حال، بمجرد قدومك، سنتحدث عن أمور لا مفر منها وأصبحت عادة سيئة لكل سنة: ظهور المهدي المنتظر، ظهور العلامات الكبرى للقيامة، ونيزك يقترب كلّه شوق للاصطدام بكوكب الأرض، وفي كل مولد نبويّ، سنظهر الإشكالية الفلسفية الكبرى: هل الاحتفال به حرام أم حلال، بالإضافة إلى رئيس وزراء ليبي يتحدث عن إجراء انتخابات حرة ونزيهة وشفافة، وكلها أشياء نتمناها أن تحدث لنتذكرك بها، لكن للأسف لن نتحدث، وهذا ليس ياساً أو أملاً بل كما أشرت. هو يشبه قراءة كتيب صغير عن تعلم السباحة وأنت تطفو غارقاً في حوض استحمام.

ليس هيناً أن أكتب لك رسالة ليس فيها شيء، لكن هذا ما يحدث بالفعل. حين نرغب في إطلاق الرصاص على الآخرين، يتعطّل مخزّن المسدس فجأة، وحين لا نرغب في إطلاق الرصاص على أنفسنا تخرج الرصاصات مصدرة دوياً مدهشاً داخل جماجمنا المظلمة، كان الأمر أسهل لو وجهت الرسالة لعام 2023 قبل الميلاد، كنا حينها - في ليبيا مثلاً - بصحة جيدة أكثر، نقضي أوقات فراغنا نصنع الآلهة والرقصات الجديدة لهذا العالم المتغطرس. ننجز كل أعمالنا قبل مغيب الشمس ونتمدد على قراء أكثر الحيوانات شراسة، نحكي الحكايات وحولنا مئات الأحداث تتقاسم معهم الضحك واللحوم، والنار وسطنا تصلي بشغف لا مثيل له لتخرج لنا نوراً نقياً. ولكن الآن في هذا العالم الذي تحول إلى مكب نفايات بلاستيكية هائلة، ماذا بوسعنا فعله؟ ليس هناك من يعلمنا كيف نعيش، رغم أننا نعيش منذ آلاف السنوات، وقتلنا مع بعضنا ملايين الناس، واخترعنا ما لا يحصى من المشانق وأدوات التعذيب، وارتكبنا المجازر الهائلة، ودوسنا الحروب والإبادات على الصخور وجلود الماعز، وخلق الله لنا الغربان لتعلّمنا الدفن خوفاً من أن نطمر البحار والأراضي والغابات تحت الجثث المتعفنة. وها نحن لشدة حماسنا المفرط، ما زلنا نشكو قصر الوقت! لا أعرف وقتاً صار فيه الإنسان اجتماعياً ومعزولاً إلى هذا الحد المفجع، فمنذ أن وضعوا التوقيت في الهواتف الذكية ونحن نتخلّف عن مواعيدنا. لقد صرنا أكثر حذراً وأقل حظاً. كان جدّي يتعود كل صباح من الأشرار واللصوص ورفقة سيئي الحظ.

ومع ذلك، عليّ أن أسأل الرجل الذي يجلس في الطاولة المجاورة كم الوقت عنده. لن ينظر أيضاً إلى موباليه. سيقول:

– أعتقد أنها السابعة؟

وساقول كما كان يقول أسلافي القدامى:

– أوه الوقت يمضي بسرعة هذه الأيام، لم يعد فيها بركة كما سبق، وسيوافقني الرأي سريعاً مضيفاً جملةً هزيلة أخرى.

كل هذا لا يهم، صدقيني، لا الوقت مهم، ولا جدي مهم، ولا هذا الغريب مهم، المهم أبداً ودائماً هذا الحوار الإنساني المبتذل، هذا ما نحتاج إليه في كل زمان ومكان، في الكهوف، وقاطرات البواخر، في قبو القصور مع الخدم، في ممرات المستشفيات، داخل السجون الباردة، في مقصورة كبار الزوار، داخل الملاجئ أثناء الحروب، في صالات الانتظار بالمطارات، في الحانات والمقاهي الشعبية، في طوابير المخابز والمؤسسات الحكومية.

ومنذ أن وضعوا التقويم في الأجهزة الذكية سيفترض الإنسان يوماً ما لا محال، وهذا نفسه غير مهم، لكن العالم سيبقى عاجزاً إلى الأبد عن فهم وإجراء مثل هذه الحوارات. الأمر ليس له علاقة بكوننا كائنات فردية أو جماعية. نحن - وهذا ما عاد فيه مجال للشك - كائنات يتيمة سيئة الحظ نبحث دائماً عن الآخر إما لنزيّن به قصتنا أو لنحذفه منها.

في عهدك، لن تزدهر سوى تجارة المخدرات، والأسلحة، والبشر، والعملات الرقمية، وبسوء المناخ بسبب التلوث، وسنموت في وقت أقصر بسبب الوجبات السريعة الرديئة. ومع ذلك، سيولد أطفال أشقياء مشاكسون ومتمردون، يحلمون بتغيير العالم، سيكتبون الأشعار ويتعلمون الرقص ويساعد بعضهم بعضاً في أشد الأوقات العصيبة، فكل هذا الخوف الذي أنتجه العالم لم يقنع زهرة واحدة بعدم المجيء، وإن كنت وقتها مجرد جثة غارقة في المحيط وبقربي كتيب بائس لتعلم السباحة، فساكون سعيداً إلى أبعد حد بأن تتشبث بي يد ملهوفة تحاول تعلم السباحة.

مزاجي سيء، لذا أعتذر عن هذه الرسالة الكئيبة المكتوبة بشكل سيء. حين يتحسن مزاجي، أعدك بأني ساكتب لك رسالة كئيبة مكتوبة بشكل جيد.

المخلص دائماً إليك طالما أنك لا تأتين.

* كاتب ليبي

...

ستشفى تونس بلا إخوان ولا نكد ولا ظلاميّة

محمد عيسى المؤدب *

عام 2023 لن يكون عاماً عادياً محلياً في تونس وعربياً وعالمياً. ستتواصلُ تأثيرات كوفيد 19 على الإنسانيّة نفسياً واجتماعياً واقتصادياً. كما أنّ الحرب بين روسيا وأوكرانيا ستزيد الأوضاع توتراً وتعقيداً في كلّ دول العالم.

> ستتشاطر بعضاً من الأوقات السعيدة التي سنسرقها من «إلهك»، من هذا الزمن المتجبر الذي لا يمنحنا الكثير لنكون ما نبتغيه (سلمى عمار)

في هذه الأوضاع المُعقّدة والمتأزّمة اكتبُ رسالتي إلى العام الجديد في ما يتعلّقُ بتونس بشكل خاصّ.

رجائي أوّلاً، أن تقترن سنة 2023 بتخلّص تونس من أخطبوط الإخوان المسلمين بشكل حاسم ونهائي، في زمن ما يُسمّى بالإسلام السّياسي الذي حكم عشر سنوات، عرفت فيها تونس أسوأ مرحلة في تاريخها سياسيّاً وأمنيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً. الإخوان لا يعترفون بالدولة، ولا يجدون حرجاً في إسقاطها إن تعارضت مصالحهم معها. فقد بدأ التخطيط الإخواني للسيطرة على مفاصل الدولة التونسية مع ثمانينيّات القرن الماضي. إنّها مرحلة الانحدار التي جعلت من تونس بلد تطرّف وإرهاب واغتيالات سياسيّة وتسفير الشباب لـ«الجهاد» في سوريا والعراق وليبيا بالإضافة إلى انتشار الجريمة وتضخّم الفساد بكلّ أشكاله. ولن تتخلّص تونس من هذا الأخطبوط إلّا بالكشف عن الحقيقة في القضايا الكبرى ومنها: الجهاز السرّي لحركة «النّهضة» المسؤول عن تخطيط العمليّات الإجراميّة وتنفيذها، ملف الاغتيالات السياسيّة، خصوصاً اغتيال شكري بلعيد ومحمد البراهمي، شبكات العمليّات الإرهابيّة وتسفير الشّباب إلى بؤر التوتر في سوريا والعراق وليبيا، فضلاً عن سياسات الاختراق والإجرام التي تسبّبَ في التدهور الاقتصادي وتضخّم الفساد والجريمة على امتداد عشر سنوات.

ثانياً، تونس في حاجة ماسّة إلى أن تُشفى من العديد من الأمراض التي حوّلت شعبها إلى شعب مأساوي حزين، في حاجة إلى الشّفاء من الشّعبويّة والمُتاجرة السياسيّة التي لا تُقدّمُ حلولاً بقدر ما تُعمّقُ الأزمات الخانقة التي يعيشها العباد والبلاد، في حاجة إلى الكشف عن لوبيات الفساد التي الهبتْ الأسعار وصعّدت نسب التضخّم المالي والفقر والبطالة مقابل تراجع مُخيف لنسبة النّموّ، فلد يعيش على القروض والهبات، لا يعني أنّه بلا ثروات وإنّما يعني سوء حوكمة وانتشار الفساد في كلّ مؤسّسات الدّولة، وهو من تأثيرات جرائم الإخوان الذين ضربوا البلد في الصّميم، في عمق هويّته.

ثالثاً، تونس في حاجة ماسة إلى استعادة هويّتها، الهويّة المُعتدلة والمتسامحة والمتصالحة مع تاريخها وتراثها ومع راهنها. لعلّ أهمّ نقطة هي ضرورة استعادة قيمتي العمل والأخلاق، فما حدث في العشريّة الماضية في زمن الإخوان، هو إهدار قيمتي العمل والأخلاق لضرب الدولة وزرع الفوضى والفتنة والكراهية ثمّ المرور إلى التمكين الإخواني المقيت.

2023 بلا شكّ سيكون عام أزمات وانتفاضات في تونس وفي الكثير من البلدان العربيّة وبلدان العالم، وهذا منتظر لأسباب مُتراكمة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، لكن هذا لا يمنع من أن يكون عام حراك ثقافي حقيقي. نحتاج إلى إبداع في كلّ الفنون، في الآداب والسّينما والمسرح والموسيقى والفنّ التّشكيلي. نحتاج إلى تعبيرات جماليّة عن هويّتنا وقضايانا بأكثر حرفيّة وشغف بالفنّ والإنسان، بعيداً عن أشكال العنف والكراهية، بعيداً عن الحقد والنّفاق.

تنتهي سنة صعبة وشرسة ونستقبل سنة جديدة ببشائر الأمل، فأنا لست سوداويّاً ولا مُتشائماً رغم الأزمات الحادّة التي تعيشها تونس. وقد تعوّدت أن تعيش أزمات أكثر حدّةً لكنّها انتصرت في كلّ الهزّات وعلى مرّ العصور. ستشفى تونس بلا إخوان وبلا نكد وبلا ظلاميّة، ستُشفى بهويّتها وإرادة شعبها التي لا تستسلم في أشدّ الأزمات. أجل تونس، وهذا ما نقرأه في التّاريخ البعيد والقريب، هي أرض الانتصارات.

2023 سيكون عاماً مُختلفاً ومصيرياً وحاسماً بلا شكّ. سنُنتهي من كذبة الإخوان، ومن تجّار الدّين، ليس في تونس فحسب، سيحدثُ ذلك أيضاً في ليبيا والمغرب، آخر معاقل الإخوان المسلمين.

* روائي تونس

...

دوام الحال من المحال

آمال مختار *

أعرف جيداً أن سنة 2023 لن يختلف عن سابقاتها. من السنوات الكالحات التي عاشتها الإنسانية جمعاء. وأعلم جيّداً أنّ كل من يدقق في ما نحن فيه سيدرك ببساطة الأطفال ألّا شيء سيتغير نحو الأفضل بسرعة السحر. كل شيء يحدث في الحياة لا بد له من أن يأخذ وقته الضروري له حتى ينتهي في ظروفه التي تليق به. سيتبدل كل شيء في أوانه لأنّه لا حال يدوم.

وستتبدل الأوضاع في بلادنا بتغيّر الواقع السياسي الإقليمي والعالمي، وسنذهب بالتأكيد نحو مرحلة جديدة سيكون فيها النظام العالمي في وضعية توازن أخرى.

مع ذلك، سوف أنخرط مع أصوات الأمل والتفاؤل لأتمنى لي ولعائلتي ولوطني تونس الخضراء وللعالم سنة فيها ما فيها ممّا كُتب علينا أن نعيشه، كما عشنا واستسلمنا لكل تلك العجائب التي مرّت علينا، فشاهدناها بأعين الدهشة ثمّ أغلقناها على غرائبها ونمنا. أتمنى أن تعمّ المحبة بين الناس وأن يحل السلام العالم.

* مديرة «بيت الرواية» في تونس

ملف

يزن أبو سلامة ـ «سُلّان «رجال في الشمس»» (حبر وباستيل على ورق ـ 55 × 68 سنتم ـ 2020)

أرمي قبّعتي عالياً

زكريا محمد *

طُلب مني أن أكتب عن السنة التي تطل علينا برأسها، سنة 2023. ولم أكن أعرف ما الذي سأكتبه في مناسبة إطلالتها. فلديّ مشكلة في كتابة المناسبات: ينعقد لساني، ويقفل دماغي بابه حين أكتب عن مناسبة ما. كما أنه لا اهتمام لي أصلاً ببدايات الأعوام ونهاياتها. لا أحتفل بعيد ميلادي، ولا بالسنة الميلادية أو الهجرية ولا بالنوروز. وفي الحقيقة ليس لي عيد ميلاد. فعندما كنت أتحضّر لامتحان الإعدادية تبعاً للنظام الأردني القديم، اكتشفت أنه ليس لي اسم في السجلّات المدنية. فحين كان يولد طفل في القرية، يذهب والده إلى المختار ويخبره بمقدمه، فيسجل المختار اليوم والتاريخ في دفتره الكبير، ثم يرسل دفتر المواليد هذا في نهاية العام إلى المدينة. لكنّ المختار نسي أن يسجل اسمي وتاريخ مولدي. لهذا فليس لديّ تاريخ ميلاد. لديّ تاريخ ميلاد «مزيف» أو قل تاريخ «حلف يمين». وفيه يذهب الوالد إلى المحكمة ويحلف يميناً بأن ابنه ولد سنة كذا، بأمارة كذا وكذا، فيقبل القاضي بذلك، ويعيّن تاريخاً على هواه في هذه السنة ليكون تاريخ ميلاد الولد الذي نسي يوم مولده. وهكذا حصل معي ومع والدي. بذا فعلاقتي بالسنوات، ببداياتها ونهاياتها، ليست طيبة أبداً.

لكنني قلت لنفسي، ربما أمكنني الدخول إلى سنة 2023 من خلال الرقم 23 فيها. فقد كان يفترض أن تكون إسرائيل غير موجودة في هذا العام بناءً على نبوءة الشيخ بسام جرار، التي شغلت الناس العاديين عندنا. فانطلاقاً من نظرية الإعجاز الرقمي في القرآن، توصّل جرار إلى أن إسرائيل ستنتهي عام 2022. لكن لعبة الكوتشينة الخاصة بجرار لم تصدق، وإسرائيل لم تمت. وهي في ظني باقية لسنوات أخرى، لكنها ليست سنوات كثيرة في اعتقادي. فهي ستأكل نفسها بنفسها إن لم نأكلها نحن أعداءَها. غير أن الشيخ جرار سلّى قسماً كبيراً من الشعب بنبوءته طوال عدة سنوات، وعلى الأخص طوال سنة 2022. وتسلية الشعوب هي الهدف الآن عند الاتجاهات الدينية.

مع ذلك، فإن الرقم 23 يمثل لي شيئاً ما. فقد كان من المفترض أن أموت قبل ثلاثة وعشرين عاماً بالضبط. ففي عام 1999، شخصت بأنني مصاب بسرطان القولون. لكن الذي حصل أن الأطباء قصّوا لي جزءاً من أمعائي الغليظة، ورموها ورموا السرطان معها، فنجوت وعشت.

وقد بدا لي بعدها أن الله كان بهذا يمنحني وقتاً إضافياً من أجل أن أنجز مهمات ما. لذا أغرقت نفسي في الشغل. توقفت عن كل شيء، وتركت الناس ومشاغلهم ورائي، وركّزت على الكتابة، على الشغل، ولا شيء غيره.

غير أنني لم أكن متأكداً تماماً من المهمات المطلوبة مني. حاولت جاهداً أن أتبيّنها، وأن أنجزها بكل ما استطعت من همّة. كنت أحس أحياناً أنني عرفت هذه المهمات. لكن في أحيان أخرى، يصيبني الشك حولها، فأتشتّت وأتشوّش، وأركض مسرعاً من هنا إلى هناك، من هذه المهمة إلى تلك. ثم أنام وأنا أدعو الله أن يدلني على المهمات التي أرادها مني. لكن يبدو لي أنه أعطاني الوقت، ثم ترك لي كي أتكهّن بما أراده مني تكهناً.

كنت أقول لنفسي أحياناً: أنا شاعر، والله يريدني أن أكتب شعراً جميلاً. هذه هي مهمتي. ويصيبني هوس الكتابة الشعرية. أكتب كل يوم. أكتب كل ساعة. أفكر شعراً وآكل شعراً. وأحاول أن أنقّي ذاتي، وأن أوقف تشتتي، كي أنجز المهمة على أكمل وجه.

لكن في لحظات أخرى، يُهيَّأ لي أنّ الله عهد

> لديّ تاريخ ميلاد «مزيف» أو قل تاريخ «حلف يمين» وفيه يذهب الوالد إلى المحكمة ويحلف بأن ابنه ولد سنة كذا

إليّ بأكثر من مهمة في وقت واحد، وأن عليَّ أن أركض وراءها كلّها في اللحظة عينها. لذا، فأمامي على الشاشة مشاريع لعشرة كتب على الأقل. أنتقل من هذا إلى ذاك. وحين أغرق في واحد، يصيبني شعور بالذنب على إهمالي المهمات الأخرى.

وهكذا، أضيع بين المهمات. أعرف بشكل مؤكد أنها مهمة حربية، وأنها تتعلق بالكتابة، وأنّ عليّ أن أنجزها. لكنني لا أعرف أين تقع هذه المهمة بالضبط. لذا أنتقل من الشعر، إلى الميثولوجيا، إلى الأديان، إلى تاريخ فلسطين، إلى النقوش، إلى تاريخ اللغة العربية، إلى غوامض القرآن، إلى معتقدات العصر الحجري... إلخ. أركض كما لو أنّ أحداً يجلدني على ظهري ويصرخ بي: ألم أقل لك اركض؟ لقد أعطيتك وقتاً مستقطعاً، وعليك أن تدبّر أمرك فيه. عليك أن تركض. اركضْ، اركضْ. وأنا أركض في الوقت المستقطع. أقلب كل حجر وأرى ما تحته. لكنّ الحجارة كثيرة جداً.

في كل حال، عليّ أن أستقبل السنة القادمة بكلمات ما. فهذا ما طُلب مني. وأريد في الحقيقة أن أستقبلها بمودّة. لم أكن من قبل أهتم بالسنة الجديدة ولا بالسنة الفائتة. كنت أهتم فقط ألا أخطئ في كتابة التاريخ حين تحلّ السنة الجديدة. كنت أمضي الشهر الأول من السنة الجديدة وأنا أؤرّخ بالسنة القديمة. أي أنه يلزمني في العادة شهر كامل لكي أعتاد السنة الجديدة. كأنني غير راغب في توديع السنة القديمة، وغير راغب في رؤية وجه السنة التي تليها. لكن عليَّ أن أقول إنني لأول مرة منذ سنوات طويلة جداً أشعر بأن هذه السنة ربما تكون سنة خير. فالعالم يتغير، يتغير بشدة، والذين أذاقونا مرّ العذاب يهيمن عليهم الشك وانعدام اليقين مع مقدم السنة الجديدة. وهم يخشون بأن دولتهم (إسرائيل) ربما لن تكمل عقدها الثامن. وأنا ميّال إلى أن خشيتهم لها ما يبررها.

من أجل هذا، فأنا أرفع قبعتي عن رأسي، وأرمي بها عالياً نحو السماء، محتفلاً بالسنة الجديدة، سنة 2023. فهي السنة التي يبدو أنها ستحمل لنا أملاً جديداً.

* شاعر وباحث فلسطيني

Samedi 31 Decembre 2022 no49
السبت 31 كانون الأول 2022 العدد 49

القوس

www.alqaous.com

8 صفحات

ملحق أسبوعي مخصّص للعدل والإنصاف يصدر مع الأخبار كل سبت

القوس في عامها الأول

مقاومة اليأس

وسط الأزمة الاقتصادية الحادة وانهيار قيمة العملة الوطنية، ومع تراجع الإعلام الورقي وانتشار الإعلام الإلكتروني، وفي ظل أزمة القراءة بالعربية، بدأنا إصدار ملحق "القوس" الأسبوعي مطلع عام 2022. ولا نخفي أننا واجهنا صعوبات كثيرة وكدنا نتراجع ونتوقف عن الصدور، خصوصا عندما تبيّن لنا أن تأجير مكتبنا بالعملة الأجنبية يتيح جمع مبالغ تفوق رواتبنا، لكننا تمسّكنا بالقوس وقاومنا اليأس وتكاتفنا وألّفنا فريق عمل نتمنى أن يكون نموذجيا بهيكليته الأفقية وبروح الزمالة وتنوّع الأفكار والبحث الدائم عن آفاق جديدة للنقاش، وعن معالجات قد لا نعثر عليها للتحديات الكثيرة. وقررنا السعي إلى مقاربة مختلفة نوعا ما عن المقاربات النقليدية، وعن الإثارة والسبق الإعلامي. وأدركنا أن أكثر ما نحتاج اليه خلال العام 2023 هو مزيد من الجهد والابتكار لجذب القرّاء الشباب في لبنان والوطن العربي. "القوس" وليدة مشروع "الأخبار". "القوس" على خطى المؤسس جوزيف سماحة "من أجل التقدم نحو بناء دولة المواطنين التي يمكنها، وحدها، بعدلها وقدرتها وحرصها السيادي، أن تستوعب هذا الاستعداد المذهل للانتصار على الصعاب. (..)

عمر نشابة

متابعة

وفد قضائي دولي في بيروت
لا حصانة للدولة

صادق علوية

تتداول وسائل الإعلام المحلية والأجنبية تهديدات مختلفة تتراوح بين التهديد بالحجز على أموال الدولة أو ممتلكات المصرف المركزي، وذلك خلافاً للقانون الدولي. فالاتفاقيات الدولية تمنح الدول حصانات على أملاكها، ومنها اتفاقية الأمم المتحدة لحصانات الدول وممتلكاتها. والفارق كبير بين الاستسلام المطلق من جهة، وبين التعاون القضائي بين الدول أو مع المنظمات الدولية. فممتلكات الدولة المنقولة وغير المنقولة، لا سيّما تلك الضرورية لتسيير شؤونها كدولة مستقلة ذات سيادة، مستثناة من أي ولاية قضائية لمحاكم الدول الأخرى.

منذ عام 1977، أوصت لجنة القانون الدولي في الأمم المتحدة بدرس مسألة حصانات الدول وممتلكاتها. وكان الأبرز والأحدث اتفاقية الأمم المتحدة لحصانات الدول وممتلكاتها من الولاية القضائية التي أقرّتها الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 2004. وقد تألفت الاتفاقية من أبواب ستة وتضمت تعريفات ومبادئ عامة، وحدّدت الدعاوى التي يجوز للدول الاحتجاج بالحصانة فيها وحصانة الدول من الإجراءات الجبرية السابقة لصدور الأحكام. وقد أبرم لبنان هذه الاتفاقية بموجب القانون 2006/757.

لا يحق للدولة ان تحتج بالحصانة القضائية إذا دخلت في معاملة تجارية مع شخص أجنبي طبيعي او اعتباري

بسبب هذه الحصانة، حين يبرم لبنان اتفاقيات قرض، يطلب الدائن تنازل الدولة عن بعض الحصانات التي تتمتع بها الدولة أو المؤسسة العامة المقترضة. وسبق أن حصلت واقعة مشابهة حين أبرم لبنان اتفاقية مع شركة أجنبية عام 1995 لتطوير معمل قاديشا الكهربائي، فطلبت آنذاك هيئة التشريع والاستشارات في وزارة العدل تعديل المادة 10 من الاتفاقية، لأنه يُخشى أن يدلي بوجه الدولة -في حال نشوء نزاع يتعلق بتنفيذ الاتفاقية- بأن الفقرة الأولى من المادة 10 تنطوي على تنازل الدولة بالمطلق عن أي حصانة تتناول ممتلكاتها من دون استثناء، الأمر الذي يشكل مساساً بسيادة الدولة، وقد ينعكس سلباً على مجالات وشروط الاقتراض مستقبلاً. وطلبت الهيئة بأن تبقى ممتلكات الدولة -المنقولة وغير المنقولة- الضرورية لتسيير شؤون الجمهورية كدولة مستقلة ذات سيادة، مستثناة صراحة من التنازل عن الحصانة الواردة في الاتفاقية.

ما هي الحصانة القضائية للدولة؟

تعني الحصانة القضائية أن تتمتع الدولة، في ما يتعلق بنفسها وبممتلكاتها، بالحصانة من ولاية محاكم دولة أخرى. أي أنه لا يجوز اتخاذ إجراءات جبرية مثل إجراءات الحجز، والحجز التحفظي، والحجز التنفيذي ضد ممتلكات دولة أخرى.

أما عن كيفية إعمال حصانة الدول، فإنها تكون عبر التزام الدول بالامتناع عن ممارسة الولاية القضائية في دعوى مقامة أمام محاكمها ضد دولة أخرى. وتضمن لهذه الغاية أن تقرر محاكمها من تلقاء نفسها احترام حصانة الدولة الأخرى، وبخاصة إذا كانت الدعوى تهدف في الواقع إلى التأثير في ممتلكات تلك الدولة أو في حقوقها أو مصالحها أو أنشطتها، وفي حال عدم التزام محاكم الدول بالامتناع عن النظر في القضية يمكن للدولة الأخرى الاحتجاج بالحصانة القضائية.

ويثار تساؤل حول مدى جواز أن توافق الدولة على التنازل عن حصانتها القضائية؟ لقد أجازت الاتفاقية للأطراف الموافقة الصريحة على ممارسة الولاية القضائية من محاكم دولة أخرى، وذلك يكون بموجب اتفاقية دولية أو بموجب عقد مكتوب أو بإعلان أمام المحكمة أو برسالة خطية في دعوى محددة. وفي حال توفّر إحدى هذه الحالات، لا يجوز لدولة أن تحتج بالحصانة من الولاية القضائية في دعوى مقامة أمام محكمة دولة أخرى في ما يتعلق بأي مسألة أو قضية، إذا كانت قد وافقت صراحة على أن تمارس المحكمة ولايتها في ما يتعلق بتلك المسألة أو القضية. كما لا يجوز لدولة أن تحتجّ بالحصانة من الولاية القضائية في دعوى مقامة أمام محكمة دولة أخرى، إذا كانت هي من أقامت تلك الدعوى أمام المحكمة الأجنبية أو تدخلت فيها أو اتخذت أي إجراء أمام ذلك القضاء الأجنبي. كما لا يحق للدولة أن تحتج بالحصانة القضائية إذا دخلت في معاملة تجارية مع شخص أجنبي طبيعي أو اعتباري، وكانت المنازعات المتعلقة بالمعاملة التجارية تقع، بمقتضى قواعد القانون الدولي الخاص الواجبة التطبيق، ضمن ولاية محكمة دولة أخرى.

فهل تنازل لبنان عن حصاناته أم أن عجزه يدفع المحاكم الأجنبية إلى التدخل بقبول صريح من الدولة؟

الإجازة للحكومة إبرام اتفاقية الامم المتحدة لحصانات الدول وممتلكاتها من الولاية القضائية

الجريمة المعلوماتية

لا تكتفي بتصديق ما يُبثّ من محتوى على الإنترنت، حتى لو كان مقدّماً بطريقة محترفة ومبهرة ومتداولاً بكثرة. ففي حقبة «الميتا» تتغيّر قواعد اللّعبة: تتحرّف الوقائع وتضيع الحقائق ويدخل المجتمع فعلياً في عصر «ما بعد الحقيقة». مع انعدام الأسس والمعايير التي تحكم علاقة النّاس بالعالم الافتراضي، وفي غياب واضح للمفاهيم الاخلاقية والقانونية، تزداد الصعوبات للسيطرة على المحتوى المتداول والمقدّم لمستخدمي شبكة الويب. ومع تطور التكنولوجيا، باتت عملية تمييز الحقيقي من الـ«فايك» أمراً معقّداً. يستعرض هذا المقال انواع المحتوى المزيّف على شبكة الإنترنت واخطاره وسبل الوقاية منه

فبركة الحقيقة أونلاين

ياسر الموسوي

«وفاة والدة اللاعب في المنتخب المغربي سفيان بوفّال»، عيّنة من أخر الأخبار المضلّلة التي شغلت مواقع التواصل الاجتماعي لأيام، إذ لم يعد مفهوم الشائعات والأخبار المفبركة محصوراً بالإطار الضيّق لوسائل الإعلام التقليديّة، بل تعداه ليصبح جزءاً لا يتجزّأ من حياتنا اليومية.

الأخبار المزيّفة والمعلومات المضلّلة والفيديوهات والصور المفبركة تشكل اليوم جزءاً كبيراً من محتوى الإنترنت، إلى حدّ باتت تؤثر بشكل مباشر على الأشخاص، ولا سيّما خلال جائحة كورونا وانتشار معلومات مضلّلة للوقاية والعلاج من الإصابة.

يُعدّ إنشاء محتوى معلومات مزيّف ونشره وتداوله بهدف تضليل الجمهور عبر استخدام التقنيات والبرمجيات الحديثة سبباً كافياً لشعور النّاس بالقلق، وذلك لإمكانية استخدام مقاطع الفيديو أو ملفّات الصوت المزيّف لنشر أخبار مفبركة ومعلومات مضلّلة أو تعزيز حالة من الاضطرابات والفوضى على اكثر من مستوى. يستهلك العديد من الأشخاص في وقتنا الحالي الأخبار من وسائل التواصل الاجتماعي والمصادر الأخرى عبر الإنترنت، لكن ليس من السهل دائماً تمييز الأخبار الموثوقة من الكاذبة. ولا يزال هناك سوء فهم شائع بين الناس، بأنّ انتحال الهوية أو تزييفها لا يمكن أن يكون مقنعاً مثل الواقع الحقيقي، وهذا غير صحيح بتاتاً في عالم اليوم، حيث نعيش في وقت تصعب فيه التفرقة حرفياً بين الحقيقة والخيال، من مئات ملايين الملفّات الشخصيّة المزيّفة على وسائل التواصل الاجتماعي إلى الانتشار المقلق للأخبار المزيّفة والارتفاع المستمرّ لهجمات التصيّد الاحتيالي وهجمات الهندسة الاجتماعيّة.

الذكاء الاصطناعي لتشويه الحقيقة

تتسلّل تقنية التزييف العميق العالية الجودة إلى تطبيقات التواصل الاجتماعي مثل TikTok، Twitter، Youtube و Facebook. ويتمّ إنشاؤها من خلال تقنية التعلّم العميق (Deep Learning) للذكاء الاصطناعي (Artificial Intelligence)، والتي على سبيل المثال تستبدل صورة الشخص بنسخة رقمية متماثلة، يمكنها محاكاة الكلام والأفعال والعواطف، وهي تختلف عن تقنيات الفوتوشوب وبرمجيّات تركيب الصّور والمقاطع العاديّة، وتستخدم عادةً لخدمة أهداف وقضايا ذات تأثيرات وأرباح ماديّة أكبر، كقضايا الابتزاز المتعلّقة بالجماعات السياسية والنزاعات والحروب بين الدّول. وتكمن أيضاً الخطورة في استخدام وسائل الإعلام لهذه التقنيّات من أجل نشر أخبار مضلّلة وصناعة رأي عام مشوّه وتحريف الوعي لدى الجماهير.

اكتشاف ومكافحة المحتوى المزيف

تبتكر شركات الأمن السيبراني خوارزميات Algorithms أكثر تطوراً وقدرة على اكتشاف أي تزييف بشكل فعّال، وتعمل هذه الخوارزميات باستخدام تقنيّات الذكاء الاصطناعي على تحليل مقاطع الفيديو والصور لاكتشاف أي تحريفات أو تشوّهات صغيرة، أو تفاصيل دقيقة تحدث أثناء عملية «التزييف». فعلى سبيل المثال، تقوم برمجيات الـ«ديب فايك» الحالية بصنع وجه ثنائي الأبعاد ثم تعدّل عليه ليتناسب مع المنظور الثلاثي الأبعاد لمقطع الفيديو.

لا تزال مقاطع الفيديو والصوت التي تفبركها برامج الـ«ديب فايك» في مرحلة يمكن فيها اكتشاف زيفها من قبل الخبراء المتمرّسين في مجال الذكاء الاصطناعي. لكن مع تطوّر التقنيّات وتقدّم أداء المبرمجين ومجرمي الإنترنت، ستقلّ القدرة على اكتشاف العيوب بسهولة، وستزداد أهمية برامج الأمن الإلكتروني المتطوّرة.

تقنيات مضادة

توجد حالياً تقنيات ناشئة تساعد المشاهدين أو صانعي مقاطع الفيديو على التأكد من صحّة هذه المقاطع أمامهم، ويمكن استخدام خوارزمية تعمية Encryption لتجزئة مقاطع محددة من الفيديو، وبالتالي يمكن اكتشاف تغيّر بعض العلامات في حال التلاعب بالفيديو الأصلي. يمكن للذكاء الاصطناعي أن يسجّل بصمة رقمية مقاومة للعبث بمقاطع الفيديو، وهذه مشابهة للعلامات المائية Watermark في المستندات المطبوعة.

بعض الجوانب والدوافع الاساسيّة لاستخدام «التزييف العميق» Deepfake

● الجانب الابتزازي الإباحي: يتمّ من خلال تقنية الـ«ديب فايك» تركيب عدّة فيديوهات للأشخاص المستهدفين وهم في مواضع حميميّة أو خادشة للحياء العام، ويتمّ ابتزازهم فيها أو نشرها عبر مواقع التواصل الاجتماعي بهدف الانتقام أو الابتزاز المادّي أو العاطفي. وقد شهدت مواقع التواصل الاجتماعي منذ عام 2018 مئات الفيديوهات المفبركة بهذه الطريقة لعدّة أشخاص ومنهم مشاهير.

● الجانب السياسي: استخدمت تقنيّات الـDeepfake أخيراً على سبيل المثال مع عدّة رؤساء وشخصيّات في العالم مثل الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب ورئيس كوريا الشمالية كيم جونغ أون وغيرهما من الزعماء السياسيين في العالم وشخصيّات أخرى من مختلف المجالات، حيث استخدمت بعض الجهات هذه التقنيّة لتشويه سمعتهم أمام الرأي العام. وفي حالات أخرى، تشكّل سلاح بروباغندا فعّالاً وجزءاً من جهاز دعاية في زمن الحرب من أجل إظهار بعض الأحداث والتعمية على أخرى لقلب الحقائق وإخفائها عن النّاس (مثل تداول الصور والمقاطع غير الحقيقية من الحرب في أوكرانيا أو في

مع تطوّر التقنيّات وتقدّم اداء المبرمجين ومجرمي الإنترنت ستقلّ القدرة على اكتشاف العيوب بسهولة وستزداد اهمية برامج الامن الإلكتروني المتطوّرة

سوريا).

● الجانب السياسي الاجتماعي والإعلام: حيث تساهم المحتويات الزائفة من فيديوهات وصور وخطابات وبيانات، وتكون بأغلبها موجّهة عمداً من قبل الإعلام أو جهات أخرى، في التلاعب بوعي الجمهور المتلقّي وإثارة حالة من الاضطرابات من أجل تحقيق مارب عديدة. (مثالاً على ذلك عندما تداول ناشطو ورواد التواصل الاجتماعي مقطعاً يظهر سقوط صاروخ لحظة انفجار مرفأ بيروت في عام 2020).

● الجانب المادّي والاستهداف بغية السرقة: يطوّر العديد من مجرمي السايبر وقراصنة الإنترنت أساليبهم فيلجأون إلى تقنيّات الذكاء الاصطناعي المتقدّمة، ومنها برمجيّات التلاعب بالصوت والفيديو لسرقة حسابات مالية لشركات ومصارف ومؤسّسات حكومية، وعادةً ما تستهدف هذه الهجمات كيانات كبيرة عوضاً عن الأفراد، في ما يُعرف بهجمات الهندسة الاجتماعيّة (حيث يمكن للمجرم انتحال صفة شخصيّات موثوقة في مؤسّسة ما وكسب ثقة موظّفيها لتنفيذ عمليّته).

الحماية من الاستهداف والتنبّه للمحتوى الزائف عبر الإنترنت

يحتاج النّاس إلى التدريب المناسب على كيفية التعرّف إلى التزييف العميق. سيحتاج خبراء المعلوماتيّة أيضاً أن يكونوا قادرين على تحديد هذه التهديدات بشكل فعّال للمساعدة في حماية الأشخاص في فضاء الإنترنت.

● الشكّ في كلّ ما نتلقّاه عبر الإنترنت من محتويات مرئية ومسموعة أو مكتوبة، فكلّ شيء نراه قابل أن يكون مزيفاً أو غير حقيقي.

● التفكير دائماً في مصدر المعلومة ومن قائلها وعمّن يقولها ولماذا، هذه إحدى الطرق البديهيّة والمتاحة حتى لغير الخبراء. وللتأكّد من أنّ المحتوى حقيقي أم مزيّف، يشدّد خبراء الأمن السيبراني على عمليّة التحقّق دائماً من مصادر المعلومات لكشف الحقيقة وعدم الاكتفاء بتصديق ما يُبثّ من محتوى، ولو كان مقدّماً بطريقة محترفة ومبهرة ومتداولاً على صعيد كبير.

● الاهتمام بنشر التوعية كلّ بما يملك: من المهمّ اطلاع النّاس من حولنا على كلّ ما نعرفه عن هذه التقنيات والبرمجيّات وعن فكرة التحقّق من مصدر المعلومة وعدم الانجرار وراء الترند ولو وقع فيه بعض الأشخاص «المؤثّرين» أو «الحسابات الموثوقة» في منصّات التواصل الاجتماعي.

● عدم استخدام تقنية المحادثة المرئية عبر الفيديو مع أشخاص لسنا متأكّدين من حقيقة هويتهم: المكالمات المصوّرة أو المرئية هي أسهل طريق يستطيع من خلالها مجرمو الإنترنت جمع صورة وصوت وتفاعل وردود فعل الشخص المستهدف. لذلك كلما كان تواصل الشخص من خلال المرئي أقلّ كانت فرصة الابتعاد عن الوقوع في الفخّ أكبر.

● التوجّه إلى مراكز الاختصاص وخبراء المعلوماتيّة واللجوء إلى الجهات الأمنيّة المختصّة وأجهزة إنفاذ القانون في حال وقع الشخص ضحيّة عملية ابتزاز استُخدمت فيها تقنيّات تزييف.

● استثمار الشركات لبرامج كشف حقيقة المحتوى المزيّف من السليم ونشرها بين كلّ مستخدمي الإنترنت في المجتمع. في تلك الحالة تنجح الشركات في أن تقدم الأفضل للمجتمع ضمن المسؤولية الاجتماعية المفروضة عليها، خاصة عند الحديث عن الشركات المتعلقة بالبرمجة والإلكترونيات.

● عدم التفاعل والانجرار خلف المحتويات الجنسية الإباحية ولا الدخول إلى الروابط الإلكترونية التي تقدّم محتوى إباحياً عبر الشبكة لأنّ هذه الصفحات والمواقع هي الأكثر تعرّضاً لاختراقات وثغرات إلكترونية (كرسائل التصيّد الاحتيالي) من شأنها إسقاط الأشخاص الذين يتفاعلون معها. لذلك، كلما كان الشخص بعيداً عن الأماكن الخطرة حفظ سلامته عبر المواقع الإلكترونية.

نستطيع القول إنّ الغريزة الإنسانيّة قد تدفع الشخص للاعتقاد بأن شيئاً ما صحيح إذا كان «يبدو صحيحاً». يشير ذلك إلى أنّ العديد من النّاس سيميلون إلى الاعتقاد بأن ما يرونه هو الحقيقة وأنّ مقاطع الفيديو والصّور التي يتصفّحونها يومياً حقيقية. في المستقبل القريب، قد تحلّ كوارث عديدة إن لم يتنبّه الناس -ومن خلفهم الخبراء- من خطر استعمال تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي في عمليّات قد تؤدّي إلى عواقب خطيرة في عالم تختلط فيه الحقيقة بالوهم!

DEEPFAKE: التزييف العميق

تقنية الديب فايك Deepfake "التزييف العميق": هي تقنية متقدّمة تستخدم الذكاء الصناعي، تتيح للبرمجيّات التلاعب بمضمون المحتوى لتشكيل مجموعة صور ومقاطع فيديو ومقاطع صوتيّة مزيفة لأشخاص أو أحداث بطريقة احترافية وبجودة عالية يصعب اكتشافها بـ"العين المجرّدة" أو بالتقنيّات العادية لتحليل المقاطع. تُستخدم هذه الطريقة في عدّة مجالات ولعدّة أسباب ولتحقيق أهداف متعدّدة.

تصيّد احتيالي Phishing: هجوم يهدف إلى الحصول على معلومات ووثائق خاصّة وحسّاسة من المستهدف ككلمات مرور أو أرقام حسابات ماليّة غالباً لدوافع جرميّة، وذلك من خلال التنكّر بهيئة كيان جدير بالثّقة.

هجمات هندسة اجتماعية Social Engineering: هي هجمات تعتمد أساليب مخادعة وملتوية كانتحال صفة أشخاص موثوقين لحثّ الكيان المستهدف على إفشاء أسرار أو معلومات خاصّة يستفيد منها المهاجمون لتحقيق أهدافهم.

التعلّم العميق أو التعلّم الآلي Deep Learning/ Machine Learning): عملية تتيح للآلات أو الروبوتات التعلّم الذّاتي محاكاةً للتفكير والعقل البشري في التعامل مع تكنولوجيا المعلومات في مختلف مجالاتها.

في العمق

قوننة الجمعيات أو استمرار الفوضى

قداء عبد الفتاح

رغم ما مرّ على لبنان من حروب وويلات وأزمات اقتصادية، إلا أن الموظف في القطاع العام ظل قادراً على تأمين الحد الأدنى من استقراره الأسري. لكن ما نشهده منذ سنتين تقريباً جعل من القطاع العام، بكلّ فئاته، في مهب الريح. وبات أفضل راتب لا يتخطى ما يعادل الـ200$ ولا يكفي لتأمين الضروريات أو فاتورة اشتراك الكهرباء، وانقلب ستر الوظيفة إلى انكشاف غير مسبوق، بعدما كانت الوظيفة في القطاع العام عامل أمان واستقرار إلى حد كبير. قدّم المئات استقالاتهم، أو بحثوا عن عمل إضافي إلى جانب الوظيفة بعدما سمحت الدولة للموظف الحكومي بالعمل في مهنة أخرى (حتى المؤسسة العسكرية سمحت للعسكر بالعمل الإضافي) الأمر الذي كان ممنوعاً سابقاً إلا بحدود معينة، وذلك لتحسين وضعهم المعيشي. كل هذه الظروف التي ترافقت مع الأزمة السورية في السنوات العشر الأخيرة، وأكبها انتشار كبير لظاهرة الجمعيات المدنية التي توسّعت بشكل كبير حتى كادت تصبح بديلاً عن مؤسسات الدولة. ليس لناحية تقديم الخدمات على اختلاف أنواعها وحسب، إنما من خلال سعي المواطنين والأجانب المقيمين للعمل ضمن صفوفها لضمان أجر مرتفع بالعملة الصعبة، لا يهتز مع أي اهتزاز للوضع الاقتصادي الداخلي. وبات العمل في الـNGO حلم فئات المجتمع كافة على اختلاف اختصاصاتهم وخبراتهم وأعمارهم، فهناك عمل للجميع والمجال مفتوح لهجرة موظفي القطاع العام من مؤسسات الدولة والمؤسسات العامة إلى الجمعيات غير الحكومية.

«المجتمع المدني» سيف ذو حدين

الانتشار الواسع للجمعيات في

> **معظم موظفي القطاع العام يحاولون اغتنام فرصة اللحاق بقطار الـNGO**

لبنان هو سيف ذو حدين، ويفسّر سبب وجودها في اتجاهين معاكسين، الأول إيجابي يُظهر مدى انفتاح المجتمع اللبناني على أهمية العمل العام ونشر ثقافة التطوع بشتى المجالات وانتشار ظاهرة التوعية الحقوقية والاجتماعية والبيئية والتنموية، خصوصاً بين فئة الشباب. أما الاتجاه الثاني فسلبي يُظهر غياب مؤسسات الدولة في شتى المجالات الصحية والتعليمية والبيئية والتنموية والاجتماعية والرعائية، الأمر الذي شرّع الأبواب لعمل الجمعيات في العديد من العناوين وسهّله نتيجة القانون المرن بعد أكثر من مئة عام عليه، وغياب الرقابة اللاحقة التي نصّ عليها القانون نتيجة الإهمال الوظيفي بشكل عام وسياسة غض النظر في معظم الأحيان.

«مرقلي تمرقلك»؟

نصّ الدستور اللبناني على أن «حرية إبداء الرأي قولاً وكتابة وحرية الطباعة وحرية الاجتماع وحرية تأليف الجمعيات كلها مكفولة ضمن دائرة القانون» (المادة 13). هذا يفسّر أن كل حرية مقيدة بحدود موجب الالتزام بالقواعد العامة، وعدم مخالفة القوانين والأنظمة المرعية الإجراء وفقاً لكل نظام، وأن التأكيد على هذا الحق ضمن دائرة القانون لا يعني خروج الجمعيات عن رقابة الدولة المباشرة وغير المباشرة، لأن كل حرية مقيّدة باحترام النظام العام وعدم مخالفة القوانين المرعية الإجراء. فهل تقوم الدولة اللبنانية من خلال الإدارات المعنية بالدور الرقابي الذي يحمي وينظّم عمل الجمعيات بما تيسّر في هذا القانون وما تبعه من مراسيم؟ أم أن هذه الرقابة باتت تحكمها آليات الفساد المعروفة على قاعدة «مرّقلي تمرّقلك»؟

جمعيات مشبوهة؟

سُجّل في وزارة الداخلية والبلديات، بحسب تصريح لوزير الداخلية السابق محمد فهمي خلال مقابلة تلفزيونية (قناة الجديد) في 13 كانون الأول 2022، نحو 11500 جمعية، الفاعل منها بين ستة آلاف وسبعة آلاف جمعية. وأوضح فهمي «أن نصف الجمعيات الفاعلة تعمل تحت أجنحة أجهزة مخابرات دولية من أجل أهداف سياسية معيّنة لخلق فتن معيّنة ضد لبنان».

هذا الواقع يُضاف إليه ما يجري على الساحة اللبنانية خلال آخر عشر سنوات منذ بدء الحرب السورية تحديداً، باتت تطرح مئات علامات الاستفهام، فهل أصبحت هذه الجمعيات هي الدولة فعلاً وليس فقط نسخة طبق الأصل؟

وصلت الأزمة الاقتصادية في لبنان إلى مكان غير مسبوق، ورغم ذلك ما زال جزء من الشارع اللبناني يتنعّم بالفريش دولار من مصادر متعددة، وبفضله ما زالت الحياة تضج في الشوارع والأسواق والمولات والمطاعم وكأن لبنان بخير ولا أزمات، ولا من يشكون سوى بضعة آلاف من موظفي القطاع العام يحاول معظمهم اغتنام فرصة اللحاق بقطار الـNGO .

وما حصل في 17 تشرين 2019 من انتفاضة شعبية على قرار زيادة بضعة سنتات على الواتساب لا يوازي ما وصلنا إليه اليوم والدولار على أعتاب الـ50 ألف ليرة ولم يحرّك الشارع نفسه ساكناً. بل هناك شريحة كبيرة تتقاضى رواتبها بالدولار تعيش اليوم في أفضل حال، ولا يقتصر الأجر بالدولار على موظفي الجمعيات خصوصاً تلك التي تقدّم مشاريع تمويل لجهات خارجية، بل يتخطاها إلى الأحزاب السياسية التي تخضع أيضاً لقانون الجمعيات وتمويلها ضخم من دون أي رقابة عليها.

هذه الفئة من الشعب اللبناني

> **بات العمل في الـNGO حلم فئات المجتمع كافة على اختلاف اختصاصاتهم وخبراتهم وأعمارهم، للتنعّم بالفريش دولار**

والمقيمين ليست قليلة، وهي من تترجم على الأرض واقعاً مغايراً تماماً لما يعانيه موظفو القطاع العام والعاطلون عن العمل وبعض الفئات التي لم تزدد إلا فقراً.

الحاجة إلى تنظيم وقوننة

ليست المرة الأولى التي تُنشر فيها مقالات تتناول عمل الجمعيات المدنية، ولا شك أن الجانب الإيجابي لهذه الجمعيات والمنظمات كبير جداً في سدّ كثير من الثغرات التي خلّفها غياب المؤسسات الحكومية عن القيام بوظائفها الأساسية تجاه المواطنين والمقيمين.

إلا أن غياب الجانب التنظيمي لعمل هذه الجمعيات والمنظمات وعدم وضع ضوابط لها، مردوده سلبي على الجمعيات نفسها وعلى المجتمع ككل، وترك ساحة العمل الاجتماعي مكشوفة من دون أي ضوابط بات أمراً خطيراً لتمرير أجندات خارجية، ظاهرها اجتماعي تنموي بينما باطنها أو حقيقة أهدافها تطويع المجتمع وربطه بمقدم الخدمات الضرورية، التي هي بالأصل الرابط بين مؤسسات الدولة والمواطن من خلال علاقة تبادلية مبنية على مبدأ احترام الحقوق والواجبات.

مع هذه الفوضى التنظيمية، ينقلب دور المجتمع المدني من تنمية المجتمع وتعزيز قدراته من أجل الصالح العام ليصبح مجتمعات موازية لكل منها مصالحها وأجنداتها الخاصة التي لا تصب في خدمة المصلحة العامة، إلا في بعض العناوين العريضة التي تستخدم في كتابة المشاريع لإرضاء الممول من دون دراسة فعلية لحاجات المجتمع وضرورة الحفاظ على خصوصيته وعاداته وتقاليده والمبادئ العامة التي أكد عليها الدستور منذ نشأته.

لذلك، بات من الضروري ضبط عمل الجمعيات على اختلافها لأهميته ولخطورته في آن معاً، حيث إن تقييد عمل المجتمع المدني هو ضرب لأسس النظام الديموقراطي من جهة، وتركه متفلتاً من كل الضوابط ضرب للاستقرار ومخالفة للنظام العام من جهة أخرى.

إن الرقابة اللاحقة لعمل الجمعيات التي نص عليها قانون الجمعيات الصادر عام 1909 (راجع صفحة 6)

والقوانين والمراسيم اللاحقة بحاجة إلى تعديلات تواكب التطور السريع لعمل هذه الجمعيات وتوسّعها، إضافة إلى الرقابة المالية التي تعتبر الأخطر في هذا العمل، خصوصاً أن العدد الأكبر من هذه الجمعيات تقدم مشاريع وهمية أو بمعظمها وهمية وتحصل على أموال طائلة لا تدفع عليها أي ضرائب أو رسوم مع الأخذ في الاعتبار حجم عمل كل جمعية وقيمة الأموال التي تصل إليها ومصدرها.

إن سهولة تأسيس الجمعيات في لبنان وغياب تطبيق الرقابة للتأكد من حقيقة عمل هذه الجمعيات ومدى التزامها بالقوانين والأنظمة، التي تفرض إجراء انتخابات دورية وتقديم لوائح بأسماء المتطوعين والالتزام بتوزيع المهام وتقديم كشوفات عن مداخيل ومصاريف الجمعية بشكل شفاف وواضح، أدى إلى ما نشهده من فوضى في العمل الاجتماعي التي وصلت إلى حد النصب والاحتيال باسم العمل الخيري أو الاجتماعي. لذلك فإن إلقاء الضوء على هذا الجانب من العمل الاجتماعي هو بهدف توجيهه وتصويبه لتقديم أكبر فائدة ممكنة للمجتمع وليس بهدف التضييق على عمل المجتمع المدني.

هذا الأمر من المفترض أن يكون مطلباً لكل الناشطين في العمل العام، وهدفهم فعلاً التكامل مع مؤسسات الدولة لبناء وتطوير المجتمع ليصبح أكثر قدرة على معرفة حقوقه من دولته وفي المقابل معرفة واجباته اتجاهها للوصول إلى الوطن الذي نحلم به.

فالمطلوب مجتمع مدني يعمل بالتوازي مع مؤسسات الدولة لبناء وتحصين المجتمع ليصل بالنتيجة إلى وطن يحميه بكافة احتياجاته.

على النقاط التي يجب تعديلها لسدّ الثغرات الموجودة في القانون، خصوصاً لجهة الخلط بين الحزب السياسي والجمعية، وتفعيل الشق الرقابي اللاحق بشكل عادل ومنصف بعيداً عن اي استنسابية. بعد ان بات معروفاً ومكشوفاً حجم التمويل الضخم الذي يوضع في تصرف الجمعيات في لبنان من دون اي حسيب او رقيب، وخدمة لاجندات خارجية وداخلية متعددة. (راجع الاخبار: "«مكرمة» سوروس: لبنان أولاً | 50 مليون دولار في تصرف الجمعيات". عدد 14 كانون الثاني 2022)

(هيلم الموسوي)

في قبضة الممول

مؤسسات الدولة المكلفة تطبيق القوانين وتنظيم عمل جمعيات المجتمع المدني وتدقيق حساباتها لمعرفة ما يدخل إليها وكيف يتم إنفاقه، هي نفسها غارقة بالتمويل الخارجي بحجة التأهيل والتدريب والصيانة، غير القادرة عليها ميزانية الدولة الرسمية (ولسنا هنا بمعرض الحديث عن الهدر والفساد في هذا الملف). حتى بات مشهد لافتات كُتب عليها «بدعم من USAID» داخل وزارات الدولة والمؤسسات التابعة لها أمراً طبيعياً ولا يطرح أي علامات استفهام، فنراها في وزارة الداخلية وكل ما هو مرتبط فيها من أماكن احتجاز وسجون، أو في وزارة العدل وكل ما هو تابع لها، وفي وزارة التربية وغيرها من المؤسسات الحكومية التي باتت مكشوفة بالكامل مع كل وثائقها ومستنداتها وداتا معلوماتها أمام من يقف خلف هذا التمويل والمسؤول بشكل مباشر وغير مباشر عن شلّ مؤسسات الدولة وغياب دورها لصالح خصخصة كل شيء وتحويل الدولة اللبنانية إلى شركة خاصة يتحكم فيها أصحاب النفوذ كلٌ بحسب قدراته.

وفي غياب القوانين التي تضبط وترعى عمل هذه الجمعيات والجهات الممولة لها وفي ظل فساد مستشر في كل مفاصل الدولة باتت «ثقافة الفساد» تميز المجتمع اللبناني الرسمي والشعبي في آن.

حزب بلباس جمعية خيرية

بالرغم من أن قانون الجمعيات نصّ على عدم جواز تأليف جمعيات دينية أو سياسية أساسها الجنسية أو القومية (هناك عدد من الأحزاب اللبنانية أساسها عقائدي قومي)، إلا أن أوّل الجمعيات التي ظهرت في تاريخ لبنان منذ نشأته كانت الجمعيات الطائفية. ومع بداية الحرب الأهلية عام 1975 بدأت تظهر جمعيات سياسية (الأحزاب) وهي من حيث المبدأ مخالفة لقانون الجمعيات كما سبق وذكرنا، لأن معظم الأحزاب السياسية قائمة على الفكر العقائدي، وهي ليست جمعيات خيرية أو ثقافية، ومن المفترض أن يشرّع لها قانون خاص (المادة 4 من القانون) وإن حاول مؤسسوها تقديم أوراقهم على أساس أنها جمعيات ثقافية وتتغاطى الشأن العام خلال الحرب الأهلية ظهرت الجمعيات التطوعية التي حاولت التخفيف من أعباء غياب مؤسسات الدولة، وكان معظمها يركز على الأنشطة الصحية والخدماتية التي يحتاجها الناس في زمن الحروب، ومع بداية التسعينيات تحوّل عمل الجمعيات من تأمين الخدمات الطارئة والضرورية إلى العمل الإنمائي الذي توسعت أهدافه وعناوينه وباتت أكثر تركيزاً على كل ما هو مرتبط بحقوق الإنسان والبيئة.

في الواجهة

مزورون يبيعون أملاك المتوفين

تنتشر عمليات التزوير في عدد من مناطق لبنان، حيث يعمد المزوّرون إلى تزوير إخراجات قيد باسم شخص متوفى ويلجأون إلى كتّاب العدل لتنظيم وكالة شاملة ومطلقة باسم المتوفى، وبيع عقاراته لمصلحة أشخاص آخرين.

حضر شخص إلى دائرة الكاتب بالعدل مهى منذر القصير بتاريخ الثاني والعشرين من شهر آب سنة 2022، وأبرز هوية عليها رسمه الشمسي تُبيّن أن اسمه (ع. م.) وأنه من مواليد 1956، مصرحاً أن محل إقامته في أبي سمراء (طرابلس). وطلب تنظيم سند توكيل عام شامل ومطلق لابنته. وبعد شهر من تنظيم هذا السند، حضرت سيدة إلى الدائرة نفسها، تحمل بيان قيد إفرادي، يبيّن أنها ابنة (ع. م.) وأنها من مواليد 1975. وطلبت إعطاءها صورتين طبق الأصل عن الوكالة العامة الشاملة.

وبعد مرور ما يقارب الثلاثة أشهر، تلقت القصير اتصالاً من أمانة السجل العقاري يعلمونها بموجبه أنه ولدى دراسة معاملة بيع مسجلة في السجل اليومي، تبيّن أن الوكالة المذكورة مشتبه بتزويرها. والسبب

حسب ما أفادوا أن السيد (ع. م.) توفي بتاريخ 28/7/2014 -بحسب حكم حصر إرث شرعي صادر بتاريخ 4/12/2014 بموجب وثيقة شرعية. ولدى الاطلاع على معاملة الطبق الأصل التي أبرزت لدى أمانة السجل العقاري، تبيّن بأن ثمة تزوير في الصفحة الأولى من الوكالة، إذ إن الوكالة المنظمة في دائرتها هي منظمة من (ع. م.) من مواليد 1956، والشخص الذي حضر أمامها هو شخص في الستينات من العمر وهو نفسه الرسم الشمسي على الهوية. أما الصفحة الأولى من الطبق الأصل المبرزة لدى أمانة السجل العقاري مذكور فيها أن (ع. م.) من مواليد 1936، الأمر الذي يؤكد أن ثمة تزوير في الصفحة الأولى من الطبق الأصل إذ إنها غير مطابقة للأصل المحفوظ لدى القصير، والذي على أساسه أعطي طبق الأصل. وعليه، تقدمت الكاتب بالعدل بتاريخ التاسع من شهر كانون الأول من سنة 2022 أمام النيابة العامة الاستئنافية في لبنان الشمالي، بشكوى مع اتخاذ صفة الادعاء الشخصي بحق المزوّرين وكل من يظهره التحقيق فاعلاً أو محرضاً أو شريكاً أو متدخلاً بجرم تزوير واستعمال مزوّر، مطالبة اتخاذ كافة الاجراءات القانونية اللازمة.

متابعة

(ارشيف ـ مروان طحطح)

113 سنة على قانون الجمعيات

صادق علوية

رغم مضيّ 113 عاماً على صدور قانون الجمعيات، و14 عاماً على صدور قانون الإجراءات الضريبية، و22 عاماً على صدور مرسوم تنظيم وزارة الداخلية، لا تزال الدولة قاصرة عن القيام بواجباتها تجاه ما يُسمّى «الجمعيات»، لجهة المراقبة ومنع استغلال بعض هذه الجمعيات للثقة التي يوليها إياها القانون باعتبارها تهدف إلى تحقيق هدف سام وهو المنفعة العامة والخير العام. جلّ ما تقوم به الدولة هو تكليف القوى الأمنية المراقبة فحسب، وذلك في حال وصلت معلومة ما تستدعي ذلك. وما خلا العمل الأمني، لا تزال الجمعيات سيئة الهدف تفسد سمعة الجمعيات ذات النيات الحسنة.

تُعرّف هيئة الاستشارات والتشريع الجمعية، بمقتضى قانون الجمعيات لسنة 1909، بأنها مجموع مؤلف من عدة أشخاص لتوحيد معلوماتهم أو مساعيهم بصورة دائمة ولغرض لا يقصد به اقتسام الربح، وتاليفها لا يحتاج إلى رخصة، بل يجب على مؤسسيها أن يقدّموا إلى وزارة الداخلية بياناً موقّعاً منهم يحتوي على عنوان الجمعية وبيان مقرها ومركز إدارتها وأسماء المكلفين بأمور الإدارة وصفتهم ومقامهم، ويعطى لهم مقابل ذلك العلم والخبر (المواد 1 و2 و6)، وتتولى الإشراف عليها وزارة الداخلية بصفتها الضابطة السياسية.

ولكن، بماذا يمكن أن يجيب أي قانوني حين يسأله ابنه ذو الثلاثة عشر عاماً بعدما يدرس مادة التربية المدنية، عن السبب الذي جعل سن الانتساب إلى الجمعيات الأهلية 20 عاماً، في حين أن سن الرشد هو ثمانية عشر عاماً. وما هي الإجابة التي يمكن أن يجيبها الوالد عن سبب عدم السماح للجمعيات بأن يكون موضوعها الجنسية أو الدين، وهو أمر يدرسه التلامذة في مادة التربية المدنية في الكتاب الرسمي الذي تصدره وزارة التربيه والتعليم العالي.

ما هي الطريقة الأمثل لتشرح لابنك أو ابنتك أن القانون المذكور صدر سنة 1327 هجرية، أي سنة 1909 ميلادية، أي قبل نشأة لبنان الكبير والجمهورية اللبنانية، وقبل الاستقلال ووضع الدستور. وكيف يمكن إقناعهما بأن هذا القانون يسري على الجمعيات الأهلية والمدنية وعلى الأحزاب السياسية في آن واحد؟ وكيف أن قانون الجمعيات الذي يرعى الأحزاب أيضاً هو نفسه مخالف للدستور ولحرية الاجتماع المنصوص عليها دستوراً؟

> يلزم قانون الإجراءات الضريبية الصادر سنة 2008 الجمعيات بوجوب اعتمادها رقم تسجيلها لدى وزارة المالية على جميع المستندات الصادرة عنها

أما أن لهذه الجمهورية أن تضع قانوناً عصرياً للجمعيات المدنية والأهلية وقانوناً للأحزاب؟ وكيف يمكن التعايش مع كمّ العبارات التي لا يقبلها عاقل أو منطق، وأبسطها أنه ينصّ على عقوبة مقدارها ذهبيتان وأقصاها عشر ذهبات وعقوبة أخرى مقدارها 50 ذهبة؟

في سنة 1939 أصدر المفوّض السامي قراراً ينظّم عمل الجمعيات الأجنبية، نصّ على عدم جواز إنشاء أي جمعية أجنبية ولا أن تقوم بعملها في لبنان أو في سوريا ما لم تحصل على ترخيص مسبق من مندوب المفوّض السامي، ولا يجوز أن تكون لها مؤسسات في لبنان أو سوريا إلا بمقتضى ترخيص خاص لكل مؤسسة من هذه المؤسسات. وعلى أي حال، فإن قانون الجمعيات صدر في 29 رجب سنة 1327 هـ الموافق 3 آب سنة 1909 م، أي أيام الخلافة العثمانية. وفي عام 1943 صدر قانون العقوبات الذي نصّ على حل كل جمعية سرية ومصادرة أموالها.

وفي سنة 1962 أحالت الحكومة على مجلس النواب مشروع قانون معجلاً يمنع على أي كان الإبقاء على جمعية حلّت لارتكابها جرائم تتعلق بأمن الدولة أو مساعدتها على القيام بنشاط ما. وصدر القانون بموجب مرسوم، وقد نصّ على أن الجمعية التي تم حلّها لارتكابها هذه الجرائم لا يجوز أن ترخّص مجدداً إلا بموجب قانون، وذلك خلال السنوات الثماني التي تلي صدور الحل. ويشمل هذا الاحتراز مختلف تفرّعات الجمعية المنحلّة مهما تنوعت الأسماء.

وتنصّ المادة السابعة من المرسوم رقم 10830/ 1962 على ما يأتي:
«في الشهر الأول من كل سنة، على كل جمعية مجازة أن تتقدم من وزارة الداخلية بلائحة تتضمن أسماء أعضائها وبنسخة عن موازنتها السنوية ومن حسابها القطعي السابق. ويخضع هذا الحساب لرقابة الوزارة المختصة».

عند إقرار المرسوم رقم 4082 تاريخ 2000/10/14 (تنظيم وزارة الداخلية والبلديات) وبعد 91 عاماً من صدور قانون الجمعيات نصّت المادة 21 من المرسوم الرقم 4082 (في فقراته 3 - 4 - 5) على ما يلي:
تتولى دائرة الشؤون السياسية والأحزاب والجمعيات:
- تحضير النصوص اللازمة لإعطاء التراخيص بتاليف الجمعيات والأحزاب والأندية.
- مراقبة الجمعيات والأحزاب والأندية المرخّص لها والتأكد من أن نشاطاتها لا تخالف الغاية التي من أجلها أنشئت وإعداد تقارير دورية سنوية حول هذا الموضوع ورفعه إلى المراجع المختصة.
- السهر على تنفيذ أحكام قانون الجمعيات.

لا شك أن قانون الإجراءات الضريبية الصادر سنة 2008، أشار إلى وجوب معالجة التهرّب الضريبي الذي تمارسه كيانات عدة ومنها الجمعيات، لذلك نصّت المادة 34 من القانون على وجوب اعتماد هذه الكيانات والجمعيات خصوصاً على رقم تسجيلها لدى وزارة المالية على جميع المستندات الصادرة عنها، وأن تلتزم استعمال أرقام التسجيل المعطاة من وزارة المالية لمستخدميها والمتعاملين معها في مستنداتها كافة. مع العلم أن المادة 113 من القانون نفسه تنصّ على فرض غرامة قدرها 0,5% من قيمة العملية موضوع الفاتورة في حال لم تظهر الجمعية رقمها الضريبي على الفواتير أو المستندات المماثلة، أي على المستندات كافة التي تسلّم للغير وتكون متضمنة مبالغ، وهذا الأمر يؤكد على صلاحية وزارة المالية بالتدقيق في فواتير هذه الكيانات.

وبالتالي فإن تدخّل الدولة في قانون الإجراءات الضريبية كان تدخلاً من الناحية الأمنية والضريبية فقط وبصورة شكلية، من دون ممارسة رقابة فعلية. ولكنها في الوقت نفسه لم تعالج القضية الأساس: حاجة البلاد إلى قانون عصري للأحزاب السياسية، وقانون عصري للجمعيات المدنية والأهلية وجمعيات المناصرة، بشرط أن يقارب القانون المسألة انطلاقاً من الحريات العامة وبعيداً عن الأهداف الأمنية البحتة.

المختبر الجنائيّ

الجميع متفق على ضرورة اتّباع الاساليب العلمية خلال التحقيقات الجنائية، واهمية تطبيق العلوم الجنائية Forensic Sciences لإعادة تركيب مسرح الجريمة وتحديد تسلسل الاحداث، لكنّ الواقع مختلف تماماً. لا نزال نطلق احكاماً مسبقة، ونعتمد في تحليلاتنا على تحقيقات مسرّبة، ونلجأ إلى استخراج الاعترافات من المشتبه بهم تحت الضغط والتعذيب. الازمات في لبنان تتفاقم والجرائم تزداد، ونحن، للاسف، لا نزال نراوح مكاننا. صحيح ان الازمة الاقتصادية وتدني قيمة الرواتب وارتفاع اسعار المواد المخبرية قد القت بظلالها على نظام العدالة الجنائية، لكن يبدو ان ما ينقصنا هو «الإرادة» قبل ان يكون معدات لاختبار الحمض النووي DNA testing kit، او ادوات تحديد المدى الباليستي لإطلاق النار، او تقنيات الإضاءة الجنائية، او غيرها

المباحث العلميّة 2022: لا نزال نراوح مكاننا

جنان الخطيب

على مدار عام تقريباً، قدّمت «القوس» في قسم المختبر الجنائي مقالات علمية متخصّصة، تناولت أحدث أساليب التحقيقات الجنائية التي يمكن، إلى حد كبير، أن تساعد العاملين في نظام العدالة الجنائية لجلاء الحقيقة ومنع إفلات المجرم من العقاب وتحقيق العدالة، واستعادة بعض الثقة بالمؤسسات التي تنهار على وقع الفوضى.

لا تتطلّب الحقيقة العلمية الكثير من «المال»، لكنها تستدعي الكثير من الكفاءة والوقت والشغف. والبحث عن بقع الدم التي جرى مسحها من مسرح الجريمة لا يتطلب معدات باهظة الثمن. كما أن تطبيق التحليل الجنائي للبقع أو الانسيابات الدموية بهدف التعرف إلى أنماط البقع الدموية وتحليلها لتقديم التفسير المنطقي للأحداث الديناميكية التي أدّت إلى نشأتها، وكيف حصلت الجريمة وما لم يحصل حين وقوعها، عمل شاقّ وطويل يستدعي كفاءة عالية، لكنه لا يتطلب أدوات ومعدات بـ«الدولار الفريش».

عملية تقصّي آثار الدين، على سبيل المثال، تُعتبر من أهم الطرق التي يلجأ إليها الخبراء الجنائيون لتحديد المرتكب المحتمل للجريمة، إلا أنه في لبنان نكتفي بمسح الدين لرفع عيّنات مخلّفات إطلاق النار حصراً، في حين يتم إهمال الأدلة الأخرى التي يمكن أن تحملها الأظفار من دماء وتربة وشعر والياف وغيرها. ولا يبدو أن استخراج الأدلة من تحت الأظفار ومعالجتها بالطرق المناسبة عملية مكلفة، إلا أن ذلك الأمر يستلزم أن يكون المحقّق شغوفاً بعمله.

في حالات الاختناق، إما بسبب الشنق أو الخنق، فإن فحص علامات الرباط وتحليل المعلومات المقدّمة منها ومعاينة العقدة يمكن أن يكون كلّ ذلك الدليل الوحيد المتاح في بعض الحالات لوصول إلى السبب الأكثر احتمالاً للوفاة (قتل عرضي/انتحار). لكن، في لبنان، لا نزال نعطي أهمية كبرى أثناء التحقيقات لآثار العنف والكدمات على جسد الضحية للتفريق بين الموت الانتحاري والجنائي، ونهمل تماماً «علامات الرباط» الناتجة عن الحبل أو السلك أو المواد التي استُخدمت.

إضافة إلى ذلك، تزداد ظاهرة إطلاق النار العشوائي في ظل غياب رادع حقيقي وقوي يمنع المرتكبين. وحتى اللحظة، لم يتم الاعتماد على العلم الجنائي الباليستي أثناء التحقيقات، بهدف تحديد مسار الطلقة وموقع مطلق النار وتقديمه إلى العدالة. كل ما يتطلبه الأمر من المحققين استخدام جوانب تقنية مثل مسار الطلقة ومكان وجود الرصاصة والمظاريف الفارغة بشكل أساسي.

> تطبيق التحليل الجنائي للبقع الدموية عمل شاقّ وطويل يستدعي كفاءة عالية، لكنه لا يتطلب أدوات ومعدات بـ«الدولار الفريش»

«الجسم اللئيس»

بعد ساعات فقط من حدوث أي جريمة، يستعجل الجميع في إطلاق الأحكام المسبقة التي تسبق في بعض الأحيان تقرير الطبيب الشرعي أو مكتب الحوادث التابع للشرطة القضائية. لذلك، يُفترض أن نكون على دراية بخطر التوصّل إلى استنتاجات مستعجلة، والتي قد تُصعّب لاحقاً الوصول إلى الحقيقة. فإن استعجال الخلاصات والاتهامات والإدانات وتسريب التحقيقات، يعرقل وينسف نتائج المباحث العلمية ويقلّل من قيمتها، ويشرّع الإفلات من العقاب.

وعادة ما يختار مطلقو تلك الأحكام، الأشخاص/ الفئات التي «جسمها لئيس». ففي آخر الأحداث، قُتل جندي أيرلندي من بعثة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة في جنوب لبنان، وسرعان ما تمّت إدانة حزب الله حتى قبل أن يباشر أيّ من فريق التحقيقات اللبناني أو الأيرلندي الكشف على مسرح الجريمة وضبط الأدلة المادية.

الضغوطات تزداد على المحقّقين

في ظل تفاقم الأزمة الاقتصادية والمعيشية، وانهيار قيمة الرواتب بالليرة اللبنانية، والشلل الحاصل في مرفق العدالة، وانعدام الثقة بمؤسسات الدولة، تزداد الضغوطات على عمل المحققين، إضافة إلى قلة الموارد البشرية في هذا القطاع وتدني مستوى الخبرة المهنية والكفاءة العلمية. تلك العوامل وغيرها يمكن أن تحول دون الوصول إلى المحاكمة العادلة، وإحقاق الحق.

من الأساسي تحسين الظروف الاقتصادية والمعيشية للمحققين من أجل ضمان نزاهة وحيادية وموضوعية التحقيقات العلمية. كذلك، إن اختيار المحققين تبعاً لكفاءتهم وشغفهم، بعيداً عن الاعتبارات الطائفية والقوالب النمطية، خطوة أساسية لتفعيل دور المباحث العلمية لكشف الحقيقة وتعزيز معايير العدل والإنصاف.

احدث تقنيات التحقيق

تقنية ثلاثية الابعاد لتحديد الـ Physical fit

غالبًا ما يتلقّى الخبراء الجنائيون أدلة مادية تحتاج إلى إعادة تجميعها معاً. وهذا ما يُسمى الملاءمة المادية Physical fit، وهي طريقة معروفة لتحديد ما إن كانت قطعتان من المصدر نفسه، يمكن أن تكون هذه الأدلة مجموعة متنوّعة من المواد، وغالباً ما تكون هشّة نسبياً مثل العظام. استخدمت دراسة حديثة في جامعة في إنكلترا التصوير الثلاثي الأبعاد لتعيين الأبعاد الدقيقة لبعض العظام المحترقة وتم نسخ القطع باستخدام طابعة ثلاثية الأبعاد. وقد مكّن ذلك من تحديد ما إن كانت القطع تتلاءم معاً أم لا من دون الاضطرار إلى الإفراط في التعامل مع الأدلة الهشّة.

الرسمية Gazette

في العام 1926 اصدر المفوض السامي الفرنسي هنري دي جوفنيل قرارا حدد العقوبات على الجمعيات التي يعتبرها القانون تشكل مساسا بالنظام العام ومن العقوبات المحددة فيه عقوبة الاشغال الشاقة المؤقتة.

القوس

السبت 31 كانون الاول 2022 العدد 49

القوس

■ فريق التحرير: **عمر نشابة (المسؤول)، وفيق قانصوه، جنان الخطيب، صادق علوية، الف باء القانون**

■ تصميم فني وإنفوغرافيك: **رامي عليّان**

alqaous al_qaous alqaous22 alqaous 01/34 99 54

info@alqaous.com www.alqaous.com